سيد محمود القمني

الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية

الغلاف : محمد الصباغ





الناشــر : **مكتبة مدبـولى الصغير**

٤٥ شـارع البطـل أحمـد عبد العزيـز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقـم الإيـداع : ٩٣٤٩/ ٩٥

الطبعة الرابعة: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

المدير الفنى : **محمد الصباغ**

سيد محمود القمنى

دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية

مدخل
لقراءة الواقع الاجتماعى لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية

الناشر: مدبولي الصغير

الي ينـبـــوع الحــنان
سلـــوي (نفرتـــاري)
ابـنـــــتي..

سيد القمني

مقدمة لابد منها:

لم يكن جديدا ولاغريبا أن يلتبس الهجوم علي هذا الكتاب زيه المعتاد، فالرأي الواحد الأحد هو الصواب الأوحد، وماخالفه زندقة ومروق، ومن قال بما يبدو لهم مخالفا يصبح كافرا مستباح الدم، حتي لو كان ذلك المهاجم ممن استطابوا لأنفسهم لقب الإسلام المستنير، حيث ينكشف الأمر في النهاية بجلاء أن الأدلوجة بأحاديتها ووحدانيتها وتفردها السيادي لن تقبل إطلاقا برؤية جديدة، ولا برأي آخر، ولابقراءة أخري غير تلك القراءات التي رانت علي تاريخنا المتثائب المسترخي طوال الأربعة عشر قرنا السوالف، فهي منظومة الصدق المطلق التي لاتري الآخر إلا عدوا يجب تصفيته، أما من قدر له أن يولد داخل قبيلتها فهو خاضع بالضرورة القاهرة راغم الأنف، وما أيسر أن تكال له تهم المروق والكفران إن حاول تحريك الآسن في المنهج أوالتاريخ، وفي هذه الحال يوجد من يقوم بتنفيذ العقوبة المطلوبة باستبعاده الفوري من الكون الذي صادروه ليصبح كونهم وحدهم، وأن مهمتهم تطهيره من الآخرين كلما أمكن ذلك، بينما يضجون بصراخ العاجز المستباح إن تعرضوا لأي لون من الاضطهاد، إنهم يطلبون حريتهم كاملة باستخدام لاءات الحرية التي قعّدها كفاح الإنسان طوال القرون الماضية، ويجيدون استخدام بنودها لتكريس حق إطلاق أيديهم وحدهم لتمارس القمع والقتل والتصفية، وكبح الرأي الآخر وإخراس كل الأصوات إلا صوتهم هم وحدهم.

ونموذجا لهذا المنهج سيجد القارىء هنا نفسه إزاء حالة مثالية من بعض نماذج اخترناها تكيل الاتهامات التي تدور جميعا حول ضمير الكاتب وسريرته، تمهيدا لتطبيق قانون المخالفة الذي يقضي بعقوبة التصفية الفورية، ذلك المنهج الأوحد والنغمة الواحدة المتكررة التي قتلت فينا العقل وملكة النقد طوال تاريخ تراكمت فيه أبشع ألوان اضطهاد الإنسان وحريته وفكره.

وسيجد القاريء اتفاقا واضحا علي اتهام الكاتب في عقيدته ودينه، رغم أن اختيار الإنسان لعقيدته أمر يجب أن يكون خارجا تماما عن معني الاتهام، ولايصبح اتهاما إلا إذا كنا لازلنا نعيش حالة القبيلة الأولي التي يتماهي جميع أفرادها في ذات سلفها وربها، ولو أخذنا بأنه من الممكن أن نحاكم إنسانا بحسبانه متهما، لأنه يقبل كذا من قواعد الدين أويرفض كذا، فإني شخصيا أرفض علي الإطلاق ليس الاتهام، بل مجرد التحدث بشأن ما أعتقد فالأمر يخصني وحدي، ولايحق لأحد أياًكان أن يسألني عنه، ناهيك عن أن يحاسبني عليه، ولا أجد فيما أعتقد أيا كان لون الاعتقاد تهمة، لأن التهمة في تلك الحال ستلحق من يسوقها، وتتهمه هو في درجة اقترابه من معني الإنسانية ذاته، أما تنفيذ قرار التصفية الأحمق في كاتب، فهو أمر لايشغلني إطلاقا، لأن الكتاب لايموتون، وحين يحدث ذلك سيكون شهادة معمدة بالدم علي زمن أسود، وعندها سيكون لما كتب انتشاره الأوسع، بل وتخليده في ذاكرة مستقبل لاشك سيكون أفضل، لأنه في النهاية لن يبقي سوي ماينفع الناس، ويذهب الباقي جفاء في مزبلة التاريخ.

ورغم أن كتابنا هذا كتاب في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وليس كتابا في الدين أو أيٍّ من علومه، فقد تم تصنيفه تصنيفا آخر، ولم يتسع أفق المهاجمين خارج دائرة ماقد تؤدي إليه مثل هذه الكتب، من اشتداد الزلزلة تحت كراسيهم ومصالحهم، ولم يكن لنا غرض إطلاقا سوي فتح نافذة أطل زمانها، إزاء رتل من المصنفات يملأ أرفف المكتبة العربية، يكرر ويزيد في تكرار وإملال لذات المقولات، بنغمة واحدة وخط واحد من تفاسير وشروح التفاسير وتفسير الشروح وتعقيبات علي الشروح والتفاسير.. الخ، وهي النافذة التي أردنا أن نطل منها بقراءة علمية علي الفرز الذي أدي إليه جدل أحداث المرحلة القبل إسلامية،وقراءة أوضاع جزيرة العرب آنذاك الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو الفرز الذي كشفناه مطلبا للتوحد القومي بقيادة نبي مؤسس لدولة واحدة مركزية.

ويبدو أن هذا اللون من القراءة قد صدم مقولاتهم الثابتة، حتي أنهم لم يروا فيه سوي المروق، الذي يبدو أنه كان حكما تأسس علي عدم قدرة قبول الأمر باعتباره أمرا اعتياديا تسبقه مقدمات لابد أن تؤدي إلي نتائج، يقبلها العقل ومنطق الواقع، بعد أن اعتادوا علي منهج يري أن كل شيء يجب أن يظهر فجأة من عدم، غير مرتبط إطلاقا بواقع، ملغزا غير مفهوم، وبهذا فقط يكون مرهوبا ومخيفا ومحترما، المهم ألا يكون مفهوم الأصول وألا يكون منطقي أوطبيعي النشأة، وأن معرفة جذوره وممهداته ومنابته تخلع عنه حالته الانقطاعية، وتسحب عنه قطيعته

مع ماسبقه، ومن هنا كان لابد أن تستمر معاملته في قطيعته مع كل شيء إلا الغيب ولايمكن تصوره إلا كذلك. رغم أننا لو استخدمنا منهج الدين ذاته بشكل أكثر احتراما للدين نفسه، ولله صاحب هذا الدين، لأدركنا أن فهمنا للدين سيكون أكثر جمالا وفهما عندما يكون الرب متسقا مع ذاته، لايخالف قوانين المفترض أنه هو واضعها، وأنه كي يتم المراد من رب العباد وقيام نبي الإسلام بدعوته، فإنه كان لابد من تمهيد الواقع كي يفرز نتائجه المنطقية التي تتسق مع تلك المقدمات، وتتفق مع كمال ذلك الرب، ذلك الكمال الذي يفترض اتساق قراراته مع قوانينه وسننه، ناهيك عما سيحققه مثل ذلك الفهم علي المستوي التربوي للعقل، لنخرج من حالة الركود البليد الذي ينتظر بكل سقم معجزات مفاجئة تعيدنا لعصر الفتوحات تتقدمنا جيوش الملائكة، تحت قيادة جبريل علي فرسه حيزوم.

ولأننا لانتصور إمكان حدوث المعجز الملغز، ولاحدوث أمر جلل دون مقدمات موضوعية تماما تؤدي إليه وتفرزه، ولأننا لانتصور ممكنات، كسر قوانين الطبيعة الثابتة لأجل عيون أمة مترهلة، فلم يبق سوي أن نحاول إعادة قراءة ذلك التاريخ قراءة أخري، تربط النص بواقع، وتعيد النتائج إلي مقدماتها وأصولها الحقيقية لا الوهمية، من أجل إعادة تشكيل بنية العقل ومنهجه، ومن أجل غد أفضل لأجيالنا المقبلة، ولتراثنا ذاته.

هذا، وقد اوردنا نماذج أخري لكتابات أخري تري في كتابنا هذا فتحا جديدا في تاريخ الكتابات العربية .

سيد القمنى

نماذج من
الكتابات التى
تناولت هذا
العمل حال
ظهوره أول مرة

هذه الدراسة

بقلم: **خليل عبدالكريم**

مجلة أدب ونقد عدد أغسطس ١٩٨٩،

القاهرة

.. هي من جانب تلقي ضوءا مبهرا علي الفترة المتقدمة علي ظهور النبي العربي محمد (صلي الله عليه وسلم)، والإرهاصات الأولي لنشوء دولة العرب الإسلامية بقيادته، ومن جانب آخر فهي لاتجاري غالبية المؤرخين القدامي (ما خلا ابن خلدون وقلة قليلة)، والمحدثين منهم حتي الآن، الذين لايرون في التاريخ - علي عمومه - إلا مسيرة غيبية لاهوتية، تحركها إرادة الله تعالي - الذي هو في غني عن العالمين - ولاينظرون إلي التاريخ علي أنه ظاهرة بشرية.

وأكدت الدراسة علي أن مؤلفها يمتلك باقتدار، نظرة موضوعية علمية، في معالجته لوقائع التاريخ، ودراسته لها، وتحليلها التحليل الصحيح، وردها إلي الأسباب المباشرة والتي تتفق مع المنطق والتفكير السليم، دون حاجة إلي اللجوء إلي الماورائيات والفوق منطقيات والأحاجي والألغاز.. وهذا المنهج العلمي المحض، الموثق توثيقا شديدا، والاقتحام الجريء الفذ لإنارة منطقة حرص من سبقوه علي أن تظل معتمة، هما اللذان أثارا عليه رموز السلفوية الحديثة.. والدكتور القمني في نظري أحد الباحثين الجادين، المترهبين للعلم، والمتفرغين له، والذين لم ينالوا ما يستحقونه من شهرة، لأنه لايسعي إليها ولايعيرها التفاتا، في الوقت الذي نري فيه أنصاف المتعلمين، ممن كل بضاعتهم (صمّ) النصوص وترديدها.. يشغلون الصحف والمجلات ومحطات الإذاعة وقنوات التلفاز، بمواعظهم المنبرية وأحاديثهم وخواطرهم، وفتاواهم المستقاة من النصوص التي تجاوزها الزمن، وتخطاها الواقع المعاش، والتي ضلت طريقها إلي متاحف التاريخ وحفريات علماء الآثار.

قضية للمناقشة

بقلم: **فريدة النقاش**

صحيفة الاهالى ٢٥ يوليو ١٩٩٠ القاهرة

«الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية» كتاب صغير الحجم كبير القيمة لمؤلفه الدكتور «سيد محمود القمني» هو واحد **من أهم الإصدارات العربية المعاصرة علي الإطلاق** وأن حجبت أهميته تلك الحالة الغوغائية التي صنعها الظلاميون ومن لف لفهم ،فهؤلاء يكادون أن يستأثروا بساحة الوعي الجماهيري ويحكمون قبضتهم عليها حتي يتراجع العقل وتغيب روح النقد وتصدأ أسلحته وتصبح قيادة الجماهير أسلس.

يعرض الكتاب ببساطة فذة للأسس الاجتماعية ـ الاقتصادية التي هيأت لقيام الدعوة الإسلامية وانتشارها، ويبين علي أوضح نحو كيف أن منظومة الأفكار والتصورات التي تولدت في ظل صراعات ضارية علي امتلاك طرق التجارة، أي امتلاك ثروة ذلك الزمان كانت وثيقة الصلة لا فحسب بالاحتياجات الروحية للعرب حينذاك ،وإنما أيضا بنمو النزعة القومية الضرورية لتنمية الثروة وحمايتها، أي

بحاجاتهم المادية إلي وقف تعدد الأرباب والكعبات في حركة الوثنية قبل الرسالة في طريق تلبيتها أي في طريق القومية ذاتها.

ويتتبع المؤلف تلك المسيرة الطويلة لعبد المطلب بن هاشم جد الرسول -صلي الله عليه وسلم - الذي تمتع بوعي سياسي وقومي عال حيث ارتبطت الوحدة القومية المنشودة لديه بالسعي لتأليف القلوب عند إله واحد وأخذ يدعو لإلغاء «التماثيل والأصنام وغيرها من الوساطات والشفاعات لأنه لايقبل من أحد وساطة أوشفاعة إلا العمل الصالح».

وكان هذا العمل علي كل المستويات سياسية وعسكرية واقتصادية هو الشغل الشاغل للرسول العربي وهو يطور أفكار جده وأعماله التي شكلت تيارا قويا قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة، وذلك حين بلورت التوحيد بمعناه «الحنفي»، مستلهمة أسسه من ديانة إبراهيم الذي يعده العرب أبا لهم، ويبين المؤلف كيف أن حرية الاعتقاد كانت عرفا مسنونا ،عرفا حتمته المصالح التجارية في مكة، فكان المسيحي فيها يعيش إلي جوار «الحنفي» الي جانب اليهودي مع الصابيء والزرادشتي وعبدة النجوم وعبدة الجن وعبدة الملائكة وعبدة الأسلاف وتماثيل الشفعاء دونما قهر أو فرض أو إجبار حتي أن العبد كان يظل علي دين يخالف دين سيده.

إلي أن قامت دعوة محمد بتأليب العبيد علي أسيادهم من أرستقراطية قريش التي سرعان ماتخلص منها عبر سلسلة طويلة من الحرب والسياسة ،من إتقان بناء التجالفات وفضها حتي استقر أمر الدولة العربية الاسلامية الوليدة للبيت الهاشمي وتراجع نفوذ الأمويين من أبناء عمومتهم ليتأجج بعد ذلك الصراع التاريخي بينهما علي أسس اقتصادية اجتماعية جديدة خاصة بعد اتساع الدولة بالفتوحات وانتشار الرسالة الجديدة وعندما سنحت الفرصة للحزب الأموي انقض علي الهاشميين بضراوة واستولوا علي الحكم، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بني عمومتهم في المجازر الدموية التي راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمي.

إن «الحزب الهاشمي» هو علي حد تعبير الباحث الإسلامي خليل عبد الكريم «اقتحام جريء وفذ لإنارة منطقة ،حرص من سبقوه أن تظل معتمة وأن هذه الإضاءة المبهرة تدعونا لقراءة جديدة لوقائع التاريخ العربي الإسلامي وللتراث المكتوب والمسكوت عنه وتجعلنا أكثر شجاعة في الدعوة للإفراج عن كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي»، ومقدمة في فقه اللغة العربية «للويس عوض» وسوسيولوجيا

الفكر الإسلامي لمحمود اسماعيل فجميعها اجتهادات تحمل بطريقة أوأخري بصمات المنهج العلمي الموضوعي الذي يري في التاريخ ظاهرة بشرية ويفتح آفاقا واسعة للعقل الناقد ليتعرف علي الأسس الحقيقية لا الوهمية التي قام عليها صعود وانهيار الدولة العربية الاسلامية الأولي.

وقد أحسنت دار النشر صنعا حين قدمت الدراسة التي عكف عليها مؤلفها لثلاث سنوات متصلة ونشرها في أجزاء متفرقة لتضعها بين أيدي القراء والباحثين مادة خصبة موثقة تلهمنا قراءة جديدة وتسلحنا بالعلم والنقد في وجه الظلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾

صدق الله العظيم

بقلم: اللواء عصام الدين أبو العزايم

مجلة الإسلام وطن، عدد ٥٢ - القاهرة

بين يدي الآن كتاب « الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية» للدكتور سيد محمود القمني أرسله إلينا الابن الأستاذ/ أحمد البدوي للرد علي ماجاء به من آراء وأفكار ضد الإسلام ونبي الإسلام. وبالاطلاع علي الكتاب نجد أن فيه ضربات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وإني لا أنظر إلي الكاتب علي أنه من اليساريين أم لا. ولكنى أنظر إليه علي أن اسمه «سيد محمود»، ومادام هذا اسمه كان الأحري به أن لايضع السم في العسل، كما سنري في عرض كتابه - فقد جاء في ص ٩ بالكتاب أن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوي النظر الثاقب والفكر المنهجي المخطط استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة ،تكون نواتها ومركزها «مكة» تحديدا برغم واقع الجزيرة المتشرذم آنذاك ويؤيد ذلك بقولة عبد المطلب «إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء» وهو يشير إلي أبنائه وحفدته ويقصد الكاتب أن عبدالمطلب كان

قمنا بالرد علي هذا المقال في صحيفة مصر الفتاة، وقد أدرجنا الرد ضمن كتابنا (درب الزمان)

يسعي لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده، وإذا رجعنا إلي تاريخ العرب نجد أن العرب لاتقبل النظام الملكي وسيطرة الملك علي القبائل العربية لأن ذلك يجعل من عشيرة الملك سيادة علي بقية العشائر وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلي وتنفر منه.

وقد ذكر الكاتب هذا المعني في ص ١٠ من كتابه فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبد المطلب بتأسيس دولة هو ملك لها يتوارث الملكية أولاده وأحفاده ؟! فهذا الكلام مناقض بعضه لبعض. فعبد المطلب الذي وصفه الكاتب بما سبق أن أوضحناه من ذوي النظر الثاقب لايجوز له أن يحلم حلما أويطلب طلبا يعلم أنه فيه استحالة التنفيذ وإلا كان وصفه غير ماوصفه الكاتب أي أنه رجل ذو أحلام وذو آمال لاتتفق مع الواقع القبلي العربي وبهذا لايوصف بالذكاء ولا الفطنة.

ولقد وصف الدكتور/ طه حسين «عبد المطلب »في كتابه «علي هامش السيرة» بأنه كان «سمح الطبع رضي النفس سخي اليد حلو العشرة عذب الحديث قوي الإيمان تملك قلبه وتسيطر علي نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، إلي أن قال أنه كان يتميز من بقية فتيان قريش في ذكائهم وفطنتهم وفي إبائهم وعزتهم ولكنه فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أويبسمون لها. هذا قول الدكتور طه حسين في وصف عبد المطلب.

ولك أيها القارىء الحكم في ماكتبه الكاتب وماكتبه الدكتور طه حسين ـ والغريب أن الكاتب يسرد آمال اليهود وأحلامهم من انتظارهم ملك داود عليه السلام مرة اخري إليهم ويربط أحلام اليهود بأحلام العرب بقوله :«أن هذا الحلم داعب خيال سراة العرب وأشرافهم حتي بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة مشرقا في الخيال. ثم يوضح أن إزاء كل العوائق الواضحة والمحبطات السافرة للحلم وللأمل وللتوقع لم يجد الآخرون سوي الاهتداء إلي أنه لاحل سوي أن يكون منشيء الدولة المرتقبة نبيا مثل داود ،وعندما وصلوا الي هذا فشا الأمر بسرعة هائلة بين العرب حتي اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة وأمن هؤلاء بذلك وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي إلي أن قال لكن العجيب فعلا أن لايمضي من السنين غير قليل حتي تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة قادرة مقتدرة تطوي تحت جناحيها وفي زمن قياسي ملك الروم والعجم بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن

هاشم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنه النبي المنتظر.

يا للعجب لهذا الكاتب الذي **يجعل من الرسالة الإلهية رسالة بشر ويجعل** من الإيمان بالله الواحد الأحد الإيمان بزعامة وملك ،إنه بذلك لايؤمن بالرسالة التي أرسلها الله إذ جعلها في قوله أحلاما ومصالح ومنافع تحققت علي يد حفيد عبدالمطلب كما يقول ،**والله إن هذا القول لم ينطق به كافر يعلن عداوته للإسلام** ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. ماهذا الربط الذي يربطه بين أحلام اليهود وأحلام العرب، وما هذه الطعنات التي يطعن بها في رسالة الختم ؟

إن الرسالات كما هو معلوم تنقسم إلي ثلاث:

١ ـ الرسالة التي تنطوي في تكاليف الزعامة فتأتي الدعوة الإلهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم في جميع الشئون.

٢ ـ الرسالة التي تقوم أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم الأخري والمثابرة علي تذكيرها بحاجتها إلي تلك الحراسة.

٣ ـ الرسالة التي ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه.

هذه هي الرسالات التي سبقت الإسلام وإذا نظرنا إلي الرسالة المحمدية -علي صاحبها الصلاة والسلام -نجد أنه لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد إذ لم تكن تكاليف الزعامة ولا الرسالة المقصورة علي منفعة أمة ولاتحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل واحد بما يبتغيه لأنها رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدي وأن الإيمان أعلي وأقدس من كل إيمان، لأنه إيمان بالحق والهدي.

فلم تكن زعامة الرسول -عليه الصلاة والسلام -علي قومه مناط تلك الرسالة لأنه أعلن أنه جاء بها بوصفه بشرا كسائر البشر عليه من أمانة وهداية ما علي الإنسان للإنسان زعيما كان أوغير زعيم.

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة، لأنها إيمان برب العالمين ولا فضل فيها لعربي علي أعجمي ولا قرشي علي حبشي إلا بالتقوي، ولم تكن مقضاة لوعود، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين.

مالهذا الكاتب يكتب عن سيد الخلق -صلي الله عليه وسلم- بهذا الاسلوب الذي إن دل فإنما يدل علي أنه لم يكتب كتابه هذا بأمانة التاريخ الذي بين يدي المسلم والكافر.

تعال معي أيها القاريء لنقرأ سويا أقوال غير المسلمين في وصف الرسول صلي الله عليه وسلم:

١ - يقول مايكل هارت وهو غير مسلم ولا يعرف إن كان نصرانيا أويهوديا أوملحدا، ولكنه باحث أمريكي استعرض الرجال العظماء في التاريخ ووجد أن أعظمهم وأخلدهم بكل المقاييس الرسول محمد-صلي الله عليه وسلم -وكان أساس اختيار هؤلاء العظماء المائة هو شخص الرجل والأثر الذي تركه ومدي اتساع هذا الأثر وعمقه، وإن كان ولا يزال موجودا حتي اليوم ،وقد رأي هذا المؤلف أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو أعظمهم وأعمقهم وأوسعهم أثرا، وأنه لم يحدث في التاريخ أن اكتمل دين بكل عناصره الفلسفية والأخلاقية والتشريعية سوي الإسلام، وأن هذا الدين قد كمل تماما في حياة صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام وانتصر في حياته واتسع بعد انتقاله حتي أصبح المسلمون ٩٠٠ مليون في جميع أنحاء العالم ،من أجل ذلك كان الرسول - صلي الله عليه وسلم-أول الخالدين الذين ذكروا في كتاب «الخالدون مائة».

٢ - تقول دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»:

محمد بن عبد الله مؤسس الدين الإسلامي ولد في مكة ،وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد. لقد أحدث أثرا دينيا عميقا لايزال منذ دعا إليه حتي الآن هو الإيمان الحي والشريعة المتبعة لأكثر من ١/٧ سكان العالم علي أن أثره التاريخي يكتب الأكثر، عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة، منذ بدء دعوته ،قوض دعائم إمبراطوريتين عتيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية مؤسسا علي أنقاضهما حضارة جديدة .ولقد أرسي منذ جاء بدعوته التى هي عقيدة وشريعة قواعد بناء المجتمع الاجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفاؤه الأحاديث التي رويت عنه وأدق

التصرفات والأفعال التي قام بها فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراسا ومثلا أعلي يحتذونه في حياتهم اليومية جيلا بعد جيل.

٣- يقول المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي هـ. ج ويلز في كتابه المختصر «تاريخ الإنسانية» :«كان يمكن لأي متنبيء تاريخي يستعرض حياة البشر في مستهل القرن السابع الميلادي أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتي تقع كل أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار إلي أن قال: ولكن هذا المتنبيء كان سيخطيء في تقديره فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو مائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من أسبانيا إلي حدود الصين مقدمين للعالم ثقافة جديدة ومنشئين ديناً لايزال حتي اليوم إحدي القوي الحيوية في العالم.

وكان محمد بن عبد الله هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله ،والذي ظل حتي سن الأربعين لايميز نفسه بشيء غير عادي عن بقية معاصريه.

٤ - ويستعرض ويل دورانت في كتابه «تاريخ الحضارة الإنسانية» تاريخ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فيقول: «وإذا حكمنا علي العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ،قلنا أن محمدا كان أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ علي نفسه أن يرفع المستوي الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانِه فيه أي مصلح آخر في التاريخ».

٥ - ولقد وجد برنارد شو في شخصية الرسول -عليه الصلاة والسلام- مادعاه إلي أن يصفه بأنه منقذ البشرية فقال :«لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطي إلي تصوير الإسلام في أحلك الألوان ،وذلك بسبب الجهل وبسبب التعصب الذميم، والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح ،أما أنا فأري واجبا أن يدعي محمد منقذ الإنسانية وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولي زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته وأحل في العالم السلام والسعادة وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما» ،وليس هذا الذي اقتبسناه إلا نقطة من محيط وعلي سبيل المثال مما أصبح الباحثون من غير المسلمين يرددونه في هذه الآونة الأخيرة من حيث عظم تأثير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام علي البشرية منذ

ولد حتى اليوم ،مما يؤكد في نهاية أي تجليل علي أنه ينطوي علي سر يستعصي علي التحليل العلمي ولكني لا أستطيع أن أبينه بالتفصيل في هذا المقال.

ثم يتكلم الكاتب عن الكعبة بأن **للعرب هواية في بناء الكعبات وتقديس الأحجار كأنه يقول أن الكعبة المشرفة هي من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخري كثيرة ذكرها في كتابه وأن** العرب يضعون حجرا أسود ضمن الكعبة الخاصة بهم، وكذلك الكعبة بها حجر أسود. ويجب أن نرد عليه بما ذكره «برثون» في رحلته للحجاز بأنه قال: «ولايزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الإسلام يحسبونها «أي الكعبة» من البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون أنها بيت أشرفها دارا وهو زحل وستبقي في الأرض مابقي زحل في السماء».

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة في مكة وأنهم يعتقدون أنها من بناء هرمس أو إدريس عليه السلام، والصابئة هم قوم لايجاوز عددهم عشرة الآلاف وهم يقيمون في الأقاليم الجنوبية في العراق حيث قام الخليل- عليه السلام- كما في رواية العهد القديم ويقول العلامة Wright صاحب كتاب المطالعة العربية أن حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية وأن لغتهم تشبه لغة التلمود، وأنهم يقولون أن لغتهم الأولي سريانية وأنهم كانوا بمصر علي عهد الفراعنة الأول، وتلقوا ديانتهم الأولي عن أحبارهم ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم والمعروف لدينا وللعالم أجمع أن الصابئة قوم قبل الإسلام بآلاف السنين وأنهم يعرفون الكعبة قبل أن يهبط علي أرضها أحد من البشر من سلالة إسماعيل عليه السلام، وهذا يدل علي قدم الكعبة قبل العرب وأنها ليست من صنع العرب.

والمعروف تاريخيا أن الدول الكبري حاولت أن تستغني عن مكة بتحويل الطريق منها أوهدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها، وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة، فإنها هي «ميشة» المشار إليها في سفر التكوين ،وهي ميشه التي يقول الرحالة بيرتون: «إنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ويقول الرحالون الشرقيون أنها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون كما سبق أن ذكرنا.

ويخبرنا التاريخ أن أبرهة بني «القليس» في صنعاء ،وهو معبد له فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها وكتب إلي النجاشي أنه سيصرف العرب أجمعين إليها، فذهب إليها بعض العرب وهي الكعبة الجديدة ليدنسوها، وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة علي مكة في عام الفيل المشهور وهناك محاولات أخري لهدم الكعبة أخبرنا بها التاريخ ولكنها لم تهدم رغم كره من ذوي السلطان لها في الجنوب ،والفرس والروم في الشمال ومما هو جدير بالذكر ومما يعتبر ضربة قاضية لكل منكر للكعبة وللحجر الأسعد هو أنه شغل الباحثين والعلماء والمستشرقين من مئات السنين كنه الحجر الأسعد؛ هل هو من السماء أم الأرض وبعد البحث والتحليل لجزء من الحجر الأسعد أثبتت الدراسة العلمية أن الحجر الأسعد من أصل سماوي - نيزكي - وليس من أحجار الأرض، وبذلك أنهي الجدل السائد بين بعض المستشرقين، وكان بعضهم يقول إن الحجر الأسود من أصل بركاني، وكانت هذه النتيجة بعد تحليل قطعة صغيرة من الحجر الأسود أخذها العلامة ريتشارد بيرتون بعد أن ادعي أنه مسلم ،وهذا البحث كتب بمجلة آخر ساعة، وهنا سؤال : هل لو بني العرب أوغيرهم كعبات أخري للعبادة هل هذا ينقص من كعبة المسلمين شيئا،.. الحقيقة لا لأن العبادات كلها التي وضعها الحق سبحانه وتعالي علي الناس جميعا منذ آدم -عليه السلام -بها صلاة (قيام وركوع وسجود) وأخذ الفراعنة رسما من هذه الصلاة، وأخذت البوذية صورة من هذه الصلاة فهل نقول أن الصلاة مادامت قد أخذ من صورتها أناس غير مؤمنين تكون هذه الصلاة -وهي صلاة المؤمنين -صلاة غير معمول بها، وكذلك بقية العبادات من صيام وغيره - ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذي تعاهد فيه عظماء قريش لنصر كل مظلوم ورد الحق إلي كل مغصوب، وأن يكونوا يدا واحدة في قتال كل غاصب. ويعلق الأستاذ العقاد -رحمه الله- علي هذا بقوله في كتاب (مطلع النور): «وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة علي الخير، وتوحيد أبناء الجزيرة العربية في دعوة واحدة، ليست لذي سلطان من ملوك اليمن أوخليج فارس أومشارق الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين بل هي دعوة الله تلقاها أصحاب التيجان والعروش كما تلقاها عامة الخلق من العباد».

وقد جاء بصفحة ٧٩ من الكتاب عندما يتكلم الكاتب عن زواج النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسيدة خديجة مانصه: «فخديجة الغنية بمالها قد فارقت عهد الشباب الأول وكانت لها تجربة إدارة أموالها، كانت أقدر علي حياة زوجية هادئة رزينة هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية».

وسواء كانت هذه العبارة من كلمات الكاتب أو من كلمات **ينسبها للدكتور أحمد الشريف في كتابه «مكة والمدينة»** ،سواء كان ذلك أوهذا، فأحب أن أقول أن الرسول -صلي الله عليه وسلم -ليست له أفكار ذاتية يفكر فيها لذاته **ولو أن الكاتب أوغيره خرج من تعصبه الفكري وزال ما ران علي قلبه** وفتح العقل السليم الناضج وقرأ تاريخ النبي -صلي الله عليه وسلم- لخرج بما خرج به العلماء الذين ذكرناهم فى صدر المقال من أوصاف النبي -عليه الصلاة والسلام- وهم غير مسلمين ولكنهم دققوا فيما كتبوا فكانوا أمناء فيما وصفوا.

ويقول الأستاذ العقاد -رحمه الله- في كتابه (مطلع النور) واصفا الرسول -عليه الصلاة والسلام -بأنه سيد المرسلين: «سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلي وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال قبل شهادة المتدين لدينه والمتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه».

ومما أدهشني أن الكاتب يفسر الآية الكريمة: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ أن هذه الآية نزلت في فضل السيدة خديجة علي النبي -صلي الله عليه وسلم- وعلي المسلمين لأنها أغنته بمالها، وإذا عرضنا هذه الآية علي منطق العقل البسيط هل الله سبحانه وتعالي عندما يتكلم مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- فيقول له ﴿ألم يجدك يتيما فأوي ﴾ وهو خطاب منه سبحانه له هل يفهم من ذلك أن الذي أواه جده عبد المطلب أوعمه أبو طالب أم الذي أواه هو الله ﴿ووجدك ضالا فهدي﴾ أي أن الله هدي به الناس أومايقصده الكاتب بأن هداه أحد آخر.

﴿ووجدك عائلا فأغني﴾ ألا يكون هذا علي سياق الآيات السابقة أن الذي أغناه هو الله أيضا، ومعني هذه الآية ليس كما قال الكاتب ولكن معناها أن الله أغناه أي جعل دعاءه مستجابا.

يقول الكاتب في ص ٨٠ :«وبعدها أخذ محمد صلي الله عليه وسلم يتابع خطوات

جده عبد المطلب إلي غار حراء مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس ودخل التاريخ دون ملايين مثله».

يا للعجب، هل النبي -عليه الصلاة والسلام- عندما ذهب إلي غار حراء ليتعبد فيه، ألم يكن ذلك من تلقاء عقيدته وبما أوحي الله به عليه، الحقيقة نعم - أما ماذكره الكاتب من أنه تابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء فمن أين جاء الكاتب بهذا؟ والله إنه إفتراء لا أساس له من الصحة، لأن التاريخ لم يذكر لنا أن سيدنا عبد المطلب ذهب إلي غار حراء أو أنه كان يتعبد في هذا الغار والكهف لم يتحول كما قال إلي مكان مقدس بدليل أن كثيرا من الحجاج والمعتمرين لا يذهبون إليه كمكان مقدس. ولكنهم يذهبون إليه للتبرك بمكان تعبد فيه -الرسول صلي الله عليه وسلم -ولولا أن الرسول صلي الله عليه وسلم دخله مادخل التاريخ.

ويتجرأ الكاتب علي القرآن أيضا بأنه نزل يسب الوليد بن المغيرة والأخنس بن شريق عندما قالا :«أمفتون محمد أم مجنون» فنزلت آيات القرآن ﴿بأيكم المفتون.. هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم﴾ ٦-١٣ القلم. ويشرح الزنيم بأنه ابن الزانية اجتراء ليس بعده اجتراء ألا يعلم الكاتب أن الزنيم هو الذي لا أصل له معروف، وقيل هو الدعي الملحق بقوم وليس منهم وقيل هو المعروف باللئيم وقيل هو الذي له علامة في الشر يعرف بها ،وإذا ذكر الشر سبق هو إلي الذهن، وهذا يدل علي أن المعني ليس كما قال الكاتب أنه ابن الزانية.. ويذكر الكاتب ص ٨٣ من كتابه أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- قام يؤلب العبيد علي أسيادهم لندائه: «اتبعوني أجعلكم أنسابا والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسري وقيصر».. ويعلل الكاتب أن دعوة النبي -صلي الله عليه وسلم- ستجعل للعبيد أنسابا، وأنها تمثلت في عبده زيد بن حارثة وأنه أعطاه اشرف النسب بتبنيه إياه.. إلخ ما جاء من أقواله ولست أدري لم نسب الكاتب هذا الحديث بأنه اختص بالعبيد ولِمَ لمْ يكن هذا الحديث خاصا بالعرب جميعا ماهذا إلا قصور في الفكر أوطعن في السيرة، أما عتق النبي- صلي الله عليه وسلم- لزيد بن حارثة، فقد كان قبل الإسلام وقبل التكليف بالرسالة فلا ارتباط بينها وبين ماذكره الكاتب، ولولا ضيق المقال لأوضحنا الكثير **حتي يفهم الكاتب وغيره أنهم لايعرفون شيئا عن التاريخ الإسلامي.**

ويقول الكاتب أن الرسول -صلي الله عليه وسلم -نزع عن قريش الإيمان رغم

أنهم أهل الله وناداهم ﴿قل يأيها الكافرون.... لكم دينكم ولي دين﴾ ثم يأتي الكاتب بقلمه.. ويقول: «نعم مازالت الآيات تبرز التسامح الديني ـ لكم دينكم ولي دين ـ ولكن تنعت أهل مكة بأنهم الكافرون، رغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله خالق السموات والأرض ويعلل ذلك بالآية الكريمة :﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون﴾ ٦١ العنكبوت.. وغيرها من آيات الله في هذا المجال. **وكأنه يريد أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولكن لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله.**

أحب أن أوضح للكاتب وغيره أن الآيات التي في سورة العنكبوت والمؤمنون والزخرف التي تشير إلي هذه الأسئلة هي للإعجاز البشري وإظهار قدرة الله سبحانه وتعالي الذي لاينكره مسلم أوكافر ـ فالاعتراف بها بأن الخلق كلهم لله ليس دليلا علي إيمان من اعترف بذلك ما دام يعبد سواه ،فالاعتراف شيء والعبادة شيء أخر، فالإيمان لايكون إلا بالاعتراف والعبادة أي العقيدة والعبادة.

يقول ديكارت في كتاب (ديكارت ـ مباديء الفلسفة):

«علي أي معني يمكن القول بأن من جهل الله فلن يستطيع أن يعرف شيئا أخر معرفة يقينية، ومعني ذلك أنه لم يصل إلي علم يقيني من لايعرف خالقه ويقول أيضا :«في إمكان إثبات وجود الله من أن ضرورة الكينونة أو الوجود متضمنة في تصورنا له، بمعني أن من تصور الوجود الضروري الأبدي متضمنا في فكرته عن الوجود الكامل إطلاقا لزم أن يستنتج أن هذا الوجود الكامل بإطلاق موجود حقا.

ويقول أيضا: «في أن أجالنا في حياتنا كافية وحدها لإثبات وجود الله» ،ولقد قال ديكارت الكثير والكثير في صفات الله واعترافه بأنه واحد لاشريك له قادر ومع هذا الاعتراف من هذا الفيلسوف إلا أنه لايعد من المؤمنين ويعد من غيرهم لأنه لابد من الارتباط بين العقيدة والعبادة كما سبق أن ذكرنا.

ويقول الكاتب أن رسول الله –صلي الله عليه وسلم– قال وهو يطوف بالكعبة عندما غمز أشراف قريش من قناته بعد أن التفت إليهم: «أتسمعون يامعشر قريش أما والذي نفس محمد بيدة لقد جئتكم بالذبح» وأن الرسول –صلي الله عليه وسلم– بر بقسمه في بدر الكبري، ويعني الكاتب بقوله أن النبي –عليه الصلاة والسلام –قد

توعد القوم بالذبح ونفذ هذه الرغبة في غزوة بدر الكبري - إليّ أيها القاريء بأي عقل نتقبل هذا الكلام حديثا يقال في مكة في أول البعثة للتهديد والانتقام من رسول الإنسانية ونبي الرحمة ينفذه في غزوة بدر، أي بعد أكثر من ١٠ سنوات وأن الرسول -صلي الله عليه وسلم- مصر علي الانتقام - إن هذا الكلام يتنافي مع ماحدث ببدر، فلا عجب أيها القاريء حينما تعلم أن الرسول -صلي الله عليه وسلم- علي ماكان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله قد طلب الي المسلمين منذ اللحظة الأولي من المعركة ألا يقتلوا من أحسن إلي المسلمين في مكة، فهذا المعروف الذي قد قدم به هؤلاء وأولئك اعتبره الرسول -صلي الله عليه وسلم -حسنة يجزي من قدمها بمثلها بل يجزي بعشرة أمثالها، لذلك كان شفيعا لهؤلاء وأولئك عند المسلمين ساعة القتال، فأين هذه الرحمة والعدالة والحق الذي أمر به الرسول -صلي الله عليه وسلم -من عدم قتل من أحسن إلي المسلمين من أين فهم الكاتب بأنه توعد بالذبح وأين هذا الذبح ؟ لو كان حدث كما قال لهلك المشركون في غزوة بدر جميعا ،ولكن هذا لم يحدث فقد كان هناك من أسر ولم يقتل ،وكان كثيرا فلمَ الافتراء علي نبي الإسلام؟ ألم يقرأ الكاتب ماحدث بين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- في مصير الأسري، وكان رأي أبي بكر العفو عنهم ورأي عمر قتلهم، وقد أيد الرسول -صلي الله عليه وسلم- رأي أبي بكر.

ولضيق المقال اكتفيت بهذه الردود مع أن بقية ماجاء بالكتاب ليست لها قيمة حتي نرد عليه.

ويقول العالم الانجليزي كارليل في كتابه (كتاب الأبطال) لقد أصبح من أكبر العار علي أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلي من نطق من أن دين الإسلام كذب وأن محمدا خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة.

فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أري هذا الرأي أبدا ولو أن هذا الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ،وما الحياة إلا سخف

وعبث كان الأولي بها الا تخلق. فواأسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة.

وبعد فعلي من أراد أن يبلغ منزلة في عيون الكائنات الا يصدق شيئا البته من أقوال هؤلاء السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد. وهو دليل علي خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان.

وقد جاء في كتاب :

Burns edwared wastern civliagtion W.W- morton Scompany inc.New York 1973.

مانصه «أن عظمة الحضارة الإسلامية وأهميتها لاترجع إلي أنها أتت فقط بدين جديد أمن به الملايين من الناس في أماكن متعددة ومتفرقة ـ وإنما فيما أحدثته أيضا من تغيرات اجتماعية وسياسية كثيرة، نتج عنها ثراء فكري وتراث حضاري لم يسبق له مثيل . وقد تضمنت الحضارة الإسلامية الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق كما كانت ذات تأثير خاص في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية» وهذا قليل من كثير للرد علي الكاتب.

فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام فيكفينا رد غير المسلمين عليه وخاصة «كارليل».

ـ قد يلاحظ القاريء أنني لم أستشهد بآية من أيات الله ولاحديث **وأن استشهاداتي كلها من أقوال غير المسلمين ،لأن هذا هو الذي يقتنع به الكاتب** ومن كان معه في الرأي ولعلك أيها القاريء تنصفني في ذلك.

ونختتم مقالنا هذا بما قاله الأستاذ عباس العقاد –رحمه الله– في كتاب (مطلع النور) «وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه فليست هي إرادة إنسان ،ولكنها إرادة الله وماهي بقدرة أحد أوآحاد ولكنها قدرة الخالق فيما يوليها من يشاء وحيث يشاء».

ولقد صدق الله العظيم: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ ٣٢ التوبة.

التعدد لا التعدى

بقلم: **فهمي هويدى**

الأهرام - ٢٣ مارس ١٩٨٩ م القاهرة

نريد أن نستثمر الإجماع علي رفض الرواية الشيطانية لسلمان رشدي ،في حوار آخر أهم وأجدي حول نهج **«المدرسة الرشدية» المعاصرة.** وهي المدرسة التي تعمدإلي النيل من العقائد والشرائع السماوية ومقدسات الناس، بحجة حرية البحث أو الاجتهاد .

لقد كان المنطق الذي التقي عليه الإجماع في رفض الرواية الشيطانية يقوم علي فكرة أن حرية الرأى ينبغي أن تكفل للجميع حقا، شريطة الا تنتهك العقائد والمقدسات، أو تجرحها. وأحسب أن الذين أيدوا هذه المقولة لم يكونوا متعصبين ولا متطرفين ، بل إن بعضهم كانوا من غير المسلمين، ومن غير المتدينين أصلا!..

عندما قرأت رواية سلمان رشدي ،كان أول ما خطر علي بالي هو **أن لدينا كتابات عربية، من ذات القبيل تختلف عنها في الدرجة وليس في النوع،أعني أنها تهتك المقدسات وتجرحها أيضا، لكنها لا تستخدم ألفاظه البذيئة والوقحة تهدم في هدوء وبغير ألم، وتتحدي ركائز عقيدة الأمة بمنتهي الأدب!**

وقتذاك قلت أن هذه الكتابات أسوأ وأخطر..لأن رواية سلمان رشدي تسب وتجرح علي المكشوف، وقارئها يلحظ ذلك في الصفحات العشر الأولي من مؤلفه، أما الكتابات العربية التي أعنيها، فبعضها يبث الألغام في أساس العقيدة والشريعة، بأسلوب لا يصدم القارىء غير المتخصص، ولكنه يتسرب إلي عقله ووجدانه، ويحدث مفعوله في هدوء.

قلت أيضا أنه أولي بنا وأجدر أن نوقف هذا العدوان الذي يأتينا من الداخل في شكل غارات منتظمة وبأساليب ملتوية ، قبل أن نصد رياح السموم التي تهب علينا من الخارج. وأنه إذا كانت همة أهل الغيرة والحس السليم قد استثيرت، فهبوا رافضين ومنددين بأسلوب ومقاصد الرواية الشيطانية، فلماذا لا ندعوهم إلي وقفة مماثلة- شريفة ومنصفة- إزاء تلك الكتابات الشيطانية التي يروج لها في ديارنا؟

لما كتبت في موضوع رواية سلمان رشدي ، في ٢٨ فبراير الماضي ، لم أشأ أن أتعرض لهذه النقطة، لأن حجم الانفعال الذي كان سائدا آنذاك لم يكن يسمح بتوسيع نطاق المواجهة ،إضافة إلي أني آثرت أن أعرض القضية بعد أن يعود الهدوء إلي النفوس،ويصبح الجميع في وضع يسمح بإجراء حوار غير متشنج ، حول ضوابط التعامل مع العقائد والمقدسات.وأرجو أن يصح ظني في أن ذلك قد تحقق الآن نسبيا.

كتابات شيطانية

لسنا هنا في صدد توجيه الاتهام.أو المحاكمة، فليس هذا ما نستهدفه فضلا عن أننا لا نملكه، لأن هدفنا في نهاية الأمر- نكرر- هو أن نتفق علي ضوابط للتعامل مع العقائد والمقدسات المستقرة في ضمائر جميع المؤمنين ، وأن نتوصل إلي صيغة وأسلوب تتحقق بهما كفالة احترام حرية الرأي واحترام تلك العقائد والمقدسات، وهي الإشكالية الأساسية التي أثارتها رواية سلمان رشدي.

ولكي نثبت الحالة، حتي يستيقن الجميع من أننا نتحدث عن حقيقة قائمة ، ولا نطلق ادعاء بغير دليل،فإننا **نستشهد بنصين من نوع الكتابات الشيطانية العربية** التي نريد أن نلفت النظر إليها، النص الأول منشور في مصر لباحث يحمل درجة الدكتوراة في الفلسفة ، أستأذن في أن أشير إليه بالحرفين الأولين من اسمه **س.ق** وهو تلميذ لأحد كبار أساتذة الفلسفة المقيمين خارج مصر، ممن كرسوا جهدهم في السنوات الأخيرة لنقد الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية ، وعنوان النص أو البحث

الذي نقصده هو: **دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية.**

النص الثاني لباحث جزائري يقوم بالتدريس في جامعة السوربون بفرنسا، هو الدكتور محمد أركون ، وهو كتاب صدر في بيروت منذ عامين، بعنوان «تاريخية الفكر العربي الإسلامي».

خلاصة البحث الأول الذي يقع في عشرين صفحة ، ونشرته مجلة كانت تباع في القاهرة هي : أن عبد المطلب بن هاشم، جد النبي -عليه الصلاة والسلام -كان يحلم بإقامة وحدة سياسية بين عرب الجزيرة ، تحت زعامة قبيلته وهو يفكر ويخطط لطموحه ذاك، فإنه تأثر باليهود من جيرانه، الذين كان لهم كتاب «سماوي المظهر»، وتاريخ شهد قيام دولة قديمة أنشأها «الملك النبي » داود وإزاء ذلك فقد هداه التفكير هو ومن حوله ، إلي « أنه لا حل سوي أن يكون منشيء دولتهم نبيا مثل داود»- هذا هو نص عبارة الباحث - ومنذ ذلك الحين بدأ الهاشميون ينفذون مخططهم، الذي انتهي بأن أعلن حفيد عبد المطلب أنه النبي المنتظر، وهو ما عرض له الدكتور في جزء من البحث كان عنوانه: بنو هاشم من التكتيك إلي الأيديولوجيا.اعتبر الباحث أن زواج «النبي محمد بن عبدالله حفيد عبدالمطلب من خديجة بنت خويلد الأسدي التكتيك الهاشمي ، وأنه من ثمار تحالف عبد المطلب بن هاشم مع أبيها خويلد الأسدي وذكر أن إلغاء التماثيل والأصنام والدعوة إلي عبادة الإله الواحد، هي أيضا من قبيل التكتيك الهاشمي الذكي!!

عن زواج النبي من السيدة خديجة التي يطلق عليها الباحث وصف «الأرملة الثرية» ..! ـ قال صاحبنا في موضع آخر ما نصه، «أن الزواج وفر له الوقت الكافي والاطمئنان النفسي للانصراف من السعي وراء الرزق إلي التفكير في شئون قومه السياسية والدينية(؟!!) ـ من ثم أخذ يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء.. وبالحنيفية آمن ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر، بإعلانه أنه نبي الأمة بعد أن أوحي إليه إله إبراهيم أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا!! ولإثبات فكرته القائلة بأن الأمر لم يتجاوز مخططات وطموحات بني هاشم استشهد بإعلان النبي عليه الصلاة والسلام، أنا النبي لاكذب أنا ابن عبدالمطلب، وعقب علي العبارة قائلا : كأني به ينادي طيف جده: أي جدي هاأنذا أحقق حلمك!!

في النهاية ختم الكاتب بحثه ببيت الشعر المنسوب الي يزيد بن معاوية، الذي يقول فيه: لعبت بني هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل!

النص الثاني ـ كتاب الدكتور محمد أركون ـ يثير قضايا عديدة بينها دعوة إلي ما يسميه الباحث الجزائري «بتفكيك التراث» ، وتتدرج هذه الدعوة حتي تنصب علي القرآن الكريم، الذي يصفه صاحبنا بأنه «أسطوري البنية». ويحثنا علي أن نعيد قراءته «قراءة تاريخية نقدية». ومنهجه في بلوغ هذا الهدف يرتكز علي نقطتين محوريتين هما:

أولا : نزع «حالة القداسة» عن القرآن ، المستمدة من تمسك المسلمين بأصله الإلهي، والزعم بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

وزوال تلك «الهالة» يعني التعامل مع القرآن بحسبانه خطابا عربيا، وليس وحيا أو نصا إلهيا.

ثانيا : إعادة كتابة النص القرآني من جديد.. «وهذا يتطلب منا الرجوع إلي كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصل الينا، سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني. هكذا نتجنب كل حذف ثيولوجي لطرف ضد آخر (؟!) المهم عندئذ هو التأكد من صحة الوثائق المستخدمة بعدها نواجه، ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق، وانما أيضا محاولة البحث عن وثائق أخري ممكنة الوجود، كوثائق البحر الميت التي اكتشفت مؤخرا (ص٢٩)

واعتبار القرآن تراثا، أو كتابا تاريخيا أحيط بهالة من القداسة غير مبررة ، **ثم الدعوة إلي «تفكيك» هذا التراث وإعادة صياغته من جديد هو دعوة مباشرة إلى تفكيك العقيدة ذاتها ، تسترت وراء القراءة العلمية والنظرة النقدية.**

الرسالة هنا واضحة أيضا، تنطلق من ذات المنطق وتصب في ذات الاتجاه، الذي يهدم أساس العقيدة، ويكاد يردد المقولة التي تبناها صاحبنا الأول، واستشهد فيها بأنه: **لاخبر جاء ،ولا وحي نزل!!**

هذه هى المقدسات

أزعم أن هذا المستوي من الكتابات التي تطعن في أصل الدين أو تشكك في القرآن يشكل استثناء وشذوذا غير مألوفين في حياتنا الثقافية ، بقدر ما أن رواية سلمان رشدي بتوجهاتها الطاعنة في عقائد الاسلام ورموزه تشكل استثناء أيضا علي لغة الرواية الغربية. **وقد أوردنا النموذجين فقط لكي نثبت أن ثمة كتابات شيطانية أخطر من رواية سلمان رشدي ، تباع في مكتباتنا وعلي ارصفة مختلف العواصم العربية.**

غير أن ثمة مستوي آخر من الكتابات يقف علي ذات الأرضية ، وإن لم يبلغ مدي

هدم الدين أو زعزعة الثقة في خطابه الأول الذي هو القرآن.. بعضها يزدري الشريعة، ويطعن في أحكامها ويسفه نصوصها القطعية ، وبعضها يسخر من الأحاديث النبوية الصحيحة.. وبعضها يحط من شأن الصحابة وهذه الكتابات لم يتوقف سيلها طوال السنوات الأخيرة بوجه أخص، حيث خرجت علينا في أثواب متعددة وحلقات متتالية. في كتب وأبحاث ومقالات صحفية بغير حصر ، وقد سبق أن تعرضت ـ في حدود ما أتيح ـ لبعض تلك الكتابات، مبينا ما لها من خطر، وما فيها من افك وادعاء.

ولست أحسب أننا بحاجة إلي أن نستعيد تلك الكتابات ، لان شواهدها وأدلتها بين أيدي الجميع ، فضلا عن أنني عرضت لها من قبل، وبعض ما نشر لي في هذا الموضوع صدر في كتاب بعنوان«تزييف الوعي».

لن نزيد أو نفصل في هذه النقطة، لأن علاج الموقف ومحاولة تصحيحه هو قضيتنا الأساسية، وفي هذا الصدد أحسب أنه لا بديل عن اتفاق المثقفين والدعاة بمختلف اتجاهاتهم علي ضرورة احترام العقائد والمقدسات علي إطلاقها..

وربما كان مفيدا هنا أن نحدد المقصود بالمقدسات ، حتي لا تضفي القداسة علي ما لا قدسية له، وحتي لا تتخذ الدعوة ذريعة إلي مصادرة الحوار فيما هو اجتهادي، يثريه تعدد الآراء حوله، واختلافها أحيانا.

القدسي عندنا هو كل ما يتعلق بالعقائد وبالشرائع القطعية الثابتة بالكتاب والسنة، وما تعلق بذات الله وصفاته وبعامة الرسل والأنبياء، وبأماكن العبادة. وربما ألحقنا بهذه الدائرة الثقة في مجموع الصحابة، لا بأشخاصهم ، الذين حملوا الأمانة مع النبي ومن بعده.

والقدسية هنا لا تصادر الحوار، لكنها تفرض قدرا واجبا من التوقير والاحترام وترفض الطعن والتجريح والازدراء، بالتصريح أو بالغمز والتلميح **وإذا كانت هناك حاجة لمثل ذلك الحوار ، فليكن بين أهل العلم والخاصة، لان جدل عامة الناس في شأن العقائد مثير للفتن .**

والذاكرة الإسلامية مازالت تعي قصة ما جري في ظل الخلافة العباسية عندما انتقل الجدل حول قضية خلق القرآن، التي أثارها المعتزلة، من الخاصة إلي العامة فسالت دماء وخربت ديار، وترسبت مرارات وضغائن ظلت عبئا علي الواقع الإسلامي زمنا طويلا.

ولئن ظن أحد أن احترام المقدسات التي أشرت إليها متحقق بالفعل، وأن أحدا لا يجترىء علي المساس بها، فإنه يكون بذلك قد أحسن الظن بأكثر مما ينبغي، لأن الشهادات المكتوبة والمنشورة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن ثلاثة موضوعات علي سبيل الحصر كان لها النصيب الأكبر من غارات التجريح والتشهير التي تلاحقت خلال السنوات الأخيرة. وهي: الشريعة ، والسنة النبوية، والصحابة وأزعم أن بعض الكتابات التي تناولت تلك الموضوعات تطاولت أحيانا إلي حد التنفير والتحقير.

من شاء فليفكر

إن القاعدة الإسلامية المستقرة في الموقف من العقائد والمقدسات تقوم علي المبدأ القرآني القائل بأنه : من شاء فليؤمن ،ومن شاء فليكفر..

وحساب الجميع أمام الله يوم الحساب .. لكن ثمة تفرقة ضرورية بين طبيعة الموقف الشخصي من المقدسات وبين ترجمة هذا الموقف إلي عدوان علي مقدسات الآخرين.

إلي جانب هذه القاعدة فهناك الموقف الإسلامي الذي يقبل تعددية الأديان السماوية ويعترف بها، ويقبل تعددية المذاهب في داخل العقيدة الإسلامية، ويقبل تعددية المدارس داخل المذهب الواحد.

ويدعو إلي التعايش بين الجميع في إطار من البر والقسط.

هنا ننبه إلي أن دعوتنا إلي احترام العقائد والمقدسات لا نقصرها علي مقدسات المسلمين فقط، ولكننا قلنا من البداية أننا نعني جميع المؤمنين ونعني بهم مختلف أتباع الديانات السماوية التي يعترف بها الإسلام، معتبرا أن أنبياءهم هم أنبياء المسلمين أيضا.

هناك مستوي آخر من التعاليم والأحكام الشرعية، تتوافر القداسة لنصوصه ويقبل تعدد الاجتهاد في فهم محتواه.. أي أنه يتمتع بقدسية جزئية ، وليست كلية، فالنص القرآني أو الحديث الصحيح واجب الاحترام بكل تأكيد ، لكنه إذا لم يكن الحديث قطعيا في دلالته ومحسوم المضمون ، يسميه الشرعيون ظني الدلالة ، فإن اختلاف الآراء في شأن ذلك المضمون يظل واردا، وليس هناك ما يمنع من نقد تلك الآراء وتجريحها بالأسلوب العلمي المعتبر.

لكننا بحاجة إلي أن نتوقف لحظة عند كلمة الاجتهاد هذه .. لأنه باسم فتح الباب لممارسته أصبحت الإباحة نوعا من الاستباحة ، وسوغ كل من هب ودب لنفسه الحق

في أن يلغط ويخلط في الأحكام الشرعية، بدعوي ممارسة الاجتهاد حتي قرأنا عجبا في هذا الباب، أهدرت من جرائه أسس مختلف العلوم الشرعية، وفي مقدمتها علم أصول الفقه.

لقد كان مثيرا للدهشة والحزن أن واحدا من الذين هبوا ودبوا وأفتوا بغير علم، عندما ووجه بدعوي إلى استطلاع رأي المتخصصين فيما تخوض فيه، فإنه كتب رسالة نشرتها الصحف قال فيها أنه مجتهد ومتخصص، والدليل علي ذلك أنه حاصل علي ليسانس الحقوق !.. وهو ما يعني أن كليات الحقوق المصرية تخرج سنويا خمسة آلاف مجتهد، فضلا عن أن هناك مائة ألف خرجتهم تلك الكليات منذ الثلاثينيات!!

إن للاجتهاد قواعده وأهله، وله مجالاته وساحته ، وله أدبه الذي ينبغي أن يتحلي به الباحثون والمتحاورون. وما لم تراع هذه الضوابط، فإن الانزلاق إلي المساس بالأحكام وبجوهر التعاليم وبمجمل المقاصد الشرعية يظل واردا وبالتالي فإن احتمال التعدي يصبح قائما.

إننا نحرص علي التعدد وندعو إليه، شريطة ألا يتخذ ذريعة لممارسة التعدي ولن نستطيع أن نتجنب محظور التعدي مالم يستقر ذلك الاتفاق المنشود علي احترام العقائد والمقدسات ، واحترام أصول العلم وضوابطه.

ذلك درس مهم، لعلنا نستخلص عبرته من تجربة سلمان رشدي!!!

فضائح الفكر اليسارى
تأسيس الدولة الإسلامية

بقلم : الدكتور **محمد أحمد المسير**

صحيفة النور ٢٩ يوليو و٥ أغسطس ١٩٩٢

نواصل مسيرة كشف فضائح اليساريين رغم مزاعمهم حول العقلانية والعلمية والمنهجية والرؤية النقدية، وهم دخلاء علي هذه المعاني ولا يفهمون منها إلا ما يخدم مذاهبهم الهدامة..

ونقف اليوم مع كتاب بعنوان «الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية لمؤلفه الدكتور سيد محمود القمني ، ويبدأ الكتاب بتقديم بقلم خليل عبد الكريم، يحمل فيه علي العلماء والمؤرخين الذين يرون التاريخ مسيرة غيبية لاهوتية تحركها إرادة الله تعالي .. ويحرص المقدم علي التوقيع هكذا:

الشيخ/ خليل عبد الكريم أدب ونقد/أغسطس ١٩٨٩؟

ولست أدري ما علاقة خليل عبد الكريم بالمشيخة والأستاذية؟! ثم ما علاقته بالأدب والنقد ؟! وهل يريد أن يمنح نفسه أهلية العلماء الذين يجيزون لطلابهم مقدرتهم العلمية؟

أو أن المسألة تمويه علي القاريء ليطمئن أثناء قراءته للكتاب؟!

هذا ما وصل المؤلف مما كتب السيد الداعية المسير.

إن الإنسان ليس إلها مصغرا في هذا الكون ، وإنما تحركه إرادة الله تعالي، وتحيط به نواميس أبدعها المولي سبحانه، والإنسان نفسه صنعه الله جل شأنه،.. والكتاب أشبه بالمقالات فهو يضع عناوين تحتها بضع صفحات من القطع الصغير ويسير علي النحو التالي:

تأسيس(١)

وقد صدره المؤلف بمقولة نسبها إلي عبد المطلب جد الرسول ـ صلي الله عليه وسلم ، ولسنا ندري صدقها، تقول: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وأشار إلي أبنائه وأحفاده.

ثم تكلم عن الأسباب التي حالت دون خضوع مكة ويثرب للممالك المجاورة، وأشار إلي أنهما لم تخضعا لحاكم أجنبي ، ولم تكن فيهما ممالك بالمعني الحقيقي ولا وحدة سياسية تضم قبائل الحجاز..

ثم يزعم المؤلف أنه بدا لأهلها أن دولتهم المرتقبة لا حل لها سوي أن يكون منشؤها نبيا مثل داود ، وأن هذا الحل فشا بسرعة هائلة بين العرب حتي آمنوا بالنبي المنتظر.

ثم يقول المؤلف ص١٣ : لكن العجب فعلا أن لا يمضي من السنين غير قليل حتي تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة تطوي تحت جناحيها ـ وفي زمن قياسي ـ ممالك الروم والعجم بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم: محمد بن عبد الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ أنه النبي المنتظر .!! وهكذا يفتري المؤلف الكذب فيري أن فكرة النبي المنتظر اختراع عربي جاهلي لجمع الشمل، ويري أن حفيد عبد المطلب قد أعلن أنه النبي المنتظر بناء علي هذا الوهم والاختراع ثم يضع علامة التعجب في نهاية كلامه بعد أن بدأه بالتعجب فعلا ..

والمؤلف بذلك يكون قد رفض حقيقة دينية أكدها القرآن مرارا حول النبي المنتظر في مثل قوله تعالي: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علي الكافرين ﴾. ﴿البقرة–٨٩﴾

وقوله تعالي: ﴿ وإذ قال عيسي ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما

جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ ﴿الصف-٦﴾

بل إن المؤلف يقطع صلة سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - بالوحي الإلهي، ويجعل الأمر مجرد إعلان حفيد عبد المطلب أنه النبي المنتظر، وكأن المسألة صراع علي السلطة واكتساب مواقف سياسية..

تأسيس [٢]

تكلم المؤلف عن أهمية التجارة البرية في المنطقة العربية نظرا لصعوبة التجارة البحرية في البحر الأحمر والخليج العربي، وتكلم عن محاولات ملوك حمير السيطرة علي الطريق البري وما شنوه من حملات حربية تجاه مكة ويثرب ويفسر كل أشكال الصراع بين العرب أنفسهم أو بين الفرس والروم بالظروف الاقتصادية والسعي للسيطرة علي الشريان التجاري..

ثم افتعل صراعا بين مكة ويثرب باعتبارهما أهم محطتين تجاريتين علي الطريق البري ثم يهمز المؤلف ويغمز بأن تحالف الخزرج مع رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ضد قريش أثناء الهجرة كان ردا علي تحالف قريش مع الأوس ضد الخزرج.. فهو يقول ص ١٨ :« ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث في يثرب ، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومي معبس ومضرس ، وهو مما يلقي الضوء علي المستقبل القريب ، عندما يتحالف أهل يثرب وعلي رأسهم الخزرج مع النبي - صلي الله عليه وسلم - ضد قريش ، ويفسر لنا التحالف الذي سبق ذلك بين عبد المطلب بن هاشم ممثلا لبني هاشم مع الخزرج من أهل يثرب ».

إن المؤلف يصر علي نغمته النشاز بأن النبي - صلي الله عليه وسلم - سار علي درب جده عبد المطلب من أجل الزعامة ، ويفتري الكذب بأن الهجرة كانت تحالفا مع الخزرج ضد الأوس وإحياء لتحالف قديم قام به عبد المطلب عندما تزوج منهم، فمن بديهيات الأمور أن أنصار رسول الله - صلي الله عليه وسلم - كانوا من الأوس والخزرج معا وأن أخوة الإسلام جمعت بينهم جميعا وأنهم استقبلوا المهاجرين من مكة ولم يفرقوا بين هاشمي وغير هاشمي ، ولا بين قرشي وغير قرشي ، وسجل القرآن الكريم إيثارهم في قوله تعالي: ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ﴿الحشر-٩﴾

الكعبـات

تكلم المؤلف عن تـعدد الكعبات لدي العـرب وتعظيـمـها بتـعـدد الأبطال الصـالحين الراحلين، ويري أن البناء المكعب هـو الصـيـغة المعمارية المفضلة لبيـوت أرباب الجاهلية وأن الكعبة المكية كانت إطارا لحجر أسود كـما كانت باقي الكعبات تتـسم بذات السمة فهي أطر لأحجار سود.

ويقول المؤلف ص٢٣ : وسـمـيت هـذه الكعبات بيوت الله لأن كل بيت منها فـيه حـجر من بيت الله الذي في السماء، تمييـزا له عن الأرباب التي لم تكن سوي مجرد تماثيل أو أحـجـار بركـانيـة توضـع في أفنيـة الكعـبـات انتـفاعـا ببـركـات الأسـلاف الصـالحين وتشفعا بهم عند إله السماء.

ويقـدم المؤلف بعبـقـريتـه السـاذجـة سـر تقـديس الحـجـر الأسـود فـيقـول ص٢١ : «وأحـيـانا أخري كـانت هـذه الكعبـات تقـام تقـديسـا للأحـجـار الغـريبـة والنادرة، مـثل الأحجـار البركـانيـة أو النيـزكية وكلاهما كـان يغلب عليه اللون الأسـود نتيجـة عوامل الاحتراق ونظن هذا التقـديس ناتجا ـ إضافة لغرابة شكل الحجـر ـ من كونه قادما من عالم غيبي مجهول، فالحجـر البركاني مقذوف ناري من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين.

كـذلـك الحـجـر النيـزكي وربما كـان أكـثـر جـلالا لكونه كـان يصل الأرض وسط مظاهـرة احتفـالية سماوية تخلب لب البدوي المبهـور، فهو يهبط بسـرعة فائقة محتكا بغـلاف الأرض الغازي فـيشـتـعل مضـيـئـا ومخلـفا وراءه ذيلا هـائلا ، لذلك كـان هـول رؤيته في التصـور الجاهلي دافعا لحسبـانه ساقطا من عرش الآلهة في السمـاء حامـلا معه ضياء هذا المكان النوراني ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتكريم والتبجيل.

وهكذا يطعن المؤلف في تقـديس الكعبة المشرفة ويسلكها في عداد الوثنيات ويقدم تصـورا جاهـليا بعـيـدا كل البـعد عن المفـهـوم الاسلامي الـصـحـيح حـول بناء إبراهيم وإسـمـاعـيل عليـهـما السـلام للكعـبـة المشـرفـة ودعـوة الناس للحج إليـها. قـال تعـالي: ﴿وعهدنا إلي إبراهيم وإسماعيل أن طهـرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السـجود﴾ (البقرة–١٢٥).

مكة : حلم السيادة

يري المؤلف أن مكة تهـيأت لإفراز عناصـر قيادية عـربية ، وقـدرت الأحداث أن تكون لكعـبة مكة المكانة الأولي عند العـرب، والمجد الأقـدس دون غيرهـا من الكعبات بـسبب

الأسواق التجارية في مكة، وتسامح أهل مكة الديني الذي دفعهم إليه أن صعود النجم المكي واتساع السيطرة المكية أعطي للقرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذي حتمته الظروف عليهم، خاصة بعد أن تدهورت اليمن..

ويري المؤلف أنه مما ساعد علي ارتفاع النجم المكي هزيمة حملة الفيل، الأمر الذي أدي إلي الاعتقاد الواثق برب الكعبة المكية الذي صد عن بيته الجيش الغازي .. ثم تكلم عن قصي بن كلاب ووصفه بأنه صاحب دهاء ووعي سياسي ، انتقل بمكة من القبلية إلي الحضارة بإنشاء دار الندوة، وإيفاد الرسل إلي ممالك علي اطراف الجزيرة العربية، والاهتمام بالنشاط الاقتصادي..

ويزعم المؤلف أن ذلك كله قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة!!وإننا نلاحظ إصرار المؤلف علي استخدام تعبيرات: الكعبة المكية، ورب الكعبة المكية، **وحتمية الظروف.. وكلها مقولات من لا يؤمن بالإسلام..**

كما نلاحظ إلقاءه لأحكام جزافية كقوله إن هناك خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة، فيا ترى من الذي نظمها ودرسها ورسمها؟!

إنه يمهد لفكرته الشيطانية بأن محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ هو الزعيم العربي الذي أنتجته الظروف وحولته إلي قائد عسكري ودفعت به إلي تأسيس دولة حلم بها أجداده..!!

الصراع على السلطة بعد قصي:

يري المؤلف أنه بعد وفاة قصي بن كلاب ترك كل سلطاته ووظائفه وسننه الزكية لولده البكر عبد الدار دون أخيه عبد مناف، وبدأ الصراع بين الإخوة وانتهي بتقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروث.. فالسقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء لبني عبد الدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك.

وبدأ المؤلف يغمز ويهمز فيري أن ألوية الشرف في القيادة والسقاية والرفادة المنتزعة من بيت عبد الدار لبيت عبد مناف قد استقرت في يد هاشم بن عبدمناف بالتحديد دون بقية إخوته..

وما إن رحل أخوه عبد شمس عن الدنيا حتي ساورت ولده أمية الأطماع في أخذ ما بيد عمه من ألوية الشرف بالقوة، وانتهي الأمر بالاحتكام إلي كاهن خزاعي ، فقضي

الكاهن بنفي أمية بن عبد شمس عشر سنوات إلي منفي اختياري ، ولم يجد أمية أبدا من الرضا بحكم ارتضاه، فشد رحاله إلي بلاد الشام..

وكانت هذه السنوات العشر التي قضاها أمية بن عبد شمس في منفاه الشامي رصيدا لبيته الأموي من بعده حتي قام معاوية بن أبي سفيان وأقام الدولة الأموية..!! وهكذا يحاول المؤلف جاهدا أن يتوهم الصراع السياسي في المنطقة العربية، وكأن الحياة قائمة علي تسلسل اختياري وترتيب إرادي للوصول إلي هدف قيام الدولة الأموية في مواجهة الحزب الهاشمي..

وتناسي المؤلف أن أحداث التاريخ في تعاقب عصورها ليست إرادة بشرية صرفة وأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.

وان هدف شخص في عصر ما لا يلزم منه أن يتواصل السعي له في أحقاب متتالية، فالمسألة برمتها أحلام أشخاص وليست احلام أمة.. ثم متي أسلم معاوية؟ لقد أسلم بعد عشرين عاما من الدعوة الإسلامية.. ومتي كان حلم الدولة الأموية يراوده؟! في جاهليته أم في إسلامه؟!

وهل كان أمية بن عبد شمس في منفاه الاختياري بالشام يرتب لقيام الدولة الإسلامية الأموية بقيادة حفيده معاوية؟

ومهما قيل عن الملك العضوض للدولة الأموية فإننا نتساءل:

هل قامت الدولة الأموية علي الإسلام أو تبنت عقيدة الجاهلية ووثنيتها كما تصورها عبد الدار وبنوه وأحفاده الجاهليون؟!

إن الذي لا يقبل المراء ان الدولة الأموية احتضنت الاسلام وواصلت مسيرة الفتح الإسلامي ووصل المسلمون إلي أقصي الآفاق في آسيا وأفريقيا وأوروبا وجاءت بعد ذلك الدولة العباسية لتقيم الحضارة العلمية فوق هذه البقاع الإسلامية..

بنو هاشم من التكتيك إلى الايديولوجيا

يزعم المؤلف أن التكتيك الذي بدأه قصي وصل إلي هاشم، وهو تكتيك قائم علي اكتساب القلوب بالسخاء المالي ، ودعم قوي حزبه العسكري برجال من بني النجار والخزرج في يثرب وببعض المصاهرات إلي بني زهرة..

واستمر عبد المطلب بن هاشم علي هذا التكتيك في العطاء والمصاهرة وتحول إلي وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه السياسي، فانطلق عبدالمطلب يضع ديانة جديدة تجمع القلوب حول إله واحد.. وزعم أنه أوحي إليه بحفر زمزم، وزعم أن العرب جميعا وقريشا خصوصا يعودون بجذورهم إلي نسب واحد منهم رغم تحزبهم وتفرقهم أبناء لإسماعيل بن إبراهيم ، ومارس عبد المطلب التحنث والدعوة إلي مكارم الأخلاق.. ويتخذ المؤلف من تقول بعض الرواة عن الصفاء الفطري لدي عبد المطلب، ليجعل ذلك ذريعة ينسج حولها خياله المريض، فيدعي أن عبد المطلب اخترع أيديولوجيا أو عقيدة ذات مأرب سياسي.. وأن عبد المطلب أعد حفيده محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ للرئاسة فكان يجلسه علي فراشه في ظل الكعبة ويقول: إن لابني هذا شأنا، أو بعبارة أخري : دعوا ابني إنه يؤسس ملكا.

بل إن المؤلف يفسر كل مصاهرة تمت لعبد المطلب أو لولده عبد الله بالسعي إلي الرئاسة عن طريق الملك والنبوة المنتظرة..

ويسوق روايات مفادها أنه علم من أحبار اليهود أن الملك والنبوة عن طريق المصاهرة من بني زهرة فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب أخي وهيب لهذا الغرض ..

وهكذا يخرج المؤلف عن كل منطق علمي صحيح ، ويتخذ من روايات ـ ليس لها صحة السند ولا صدق اليقين ـ دلائل علي وهم اخترعه وأساطير يسعي إليها..

ومتي كان الأحبار والكهان يتخذ من أفواههم نواميس قيام الدول والحضارات؟! وإذا كانت هناك إرهاصات معينة للنبوة المحمدية فيقيننا بها جاء بعد الرسالة وليس قبل أن يوحي إلي محمد ـ صلي الله عليه وسلم..

فهي أقاصيص وأحاديث تروي لا يعتد بها ولا يلتفت إليها ولا يترتب عليها أمر جوهري ، ولم يتنبه الناس إليها إلا بعد أن أعلن محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ أنه تلقي وحيا ..

ولم يكن الوحي رغبة نفسية لمحمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ ولم تكن الرسالة أملا يراوده ، ولا حلما يسعي إليه، ولقد عاش أربعين عاما قبل أن يوحي اليه كما يعيش كافة أقرانه لم يعرف عنه إلا أنه الصادق الأمين ..

قال تعالي: ﴿ وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحي إلي

إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ (يونس-١٥- ١٦) ولنعلم أن الله تعالي إذا أراد أمرا يسر له أسبابه وجمع القلوب حوله.

جذور الايديولوجية الحنيفية:

بدأ المؤلف بربط الحنيفية بالقرن الأول قبل الميلاد ، حيث كان بعض أهل اليمن يعبدون إله السماء ويدعونه رحمن اليمن.. ثم يفترض أن حنفاء مكة وعلي رأسهم عبد المطلب بن هاشم أحيوا حنيفية رحمن اليمن بعد سبعة قرون، وبعد أن ساق المؤلف جانبا من حديث الحنفاء مثل قس بن ساعدة، وسويد بن عامر، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم ـ أخذ يؤكد المنطلق الذي اخترعه وهو أن الحنفاء كانوا ينتظرون نبيا تقع علي يده حركة الإصلاح المنشود في جمع العرب ويزعم أن العرب كانوا علي استعداد لدخول اليهودية أو النصرانية لولا أنهم بدأوا النهضة القومية بالإسلام، تلك الديانة الخاصة التي اعتبرها رمزا لقومية العرب ومعبرة عن عروبتهم وأن الحنيفية اعلنت عن نفسها تحت اسم الإسلام عندما تنبأ محمد ـ صلي الله عليه وسلم..

وهكذا بكل الخبث والمكيدة والدس يطعن المؤلف في الإسلام ونبي الإسلام، فالمسألة عنده مجرد ادعاء نبوة تلبية لجوانب نفسية لدي الحنفاء وجوانب سياسية لدي الحزب الهاشمي..

ومتي أسلم الحنفاء أنفسهم لمحمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ لينوب عنهم في ادعاء النبوة؟! وهل كان بينهم ميثاق شرف حتي لا ينازعوه دعوي النبوة؟!

ومتي كان العرب علي استعداد لاعتناق النصرانية وقد مضي عليها سبعة قرون ولم يلتفتوا إليها ، أو اعتناق اليهودية وقد تقادم عهدها؟!

وهل الإسلام دعوة قومية؟!

الا فلتخرس تلك الألسنة التي تفتري الكذب..

فالإسلام منذ يومه الأول وهو ينادي العالمين ويتخطي حجب الزمان والمكان، ويتحدي الإنس والجن.. ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾. (القلم ـ ٥٢)

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ (التكوير ـ ٢٧)

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (الفرقان ـ ١)

﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ (الأعراف ـ ١٥٨)

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء١٠٧)

ظهور النبى المنتظر

يزعم المؤلف أن النبي بعدما تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد أكثر نساء العرب مالا ـ اطمأن نفسيا وانصرف من السعي وراء الرزق إلي التفكير في شئون قومه السياسية والدينية.

ويسوق المؤلف رواية مرفوضة تاريخيا تزعم أن السيدة خديجة تآمرت مع أخيها وسقت أباها خمرا ليذهب وعيه ولا يعترض أثناء حفل الخطبة، ولما أفاق أنكر أن يكون زوج ابنته لمحمد بن عبد الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ ثم يسوق عبارته التي تحمل ألف معني ومعني ويقول ص ٨٠:

وبعدها أخذ محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء ، مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس، ودخل التاريخ دون ملايين مثله، وبالحنيفية آمن ، ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر بإعلانه أنه نبي الأمة بعد أن أوحي إليه إله إبراهيم : ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾..

وهكذا تتساقط دعاوي المؤلف الكاذبة حول المنهج العلمي والرؤية المنصفة والجهد الصارم والبحث الجاد ويقدم إفرازات شاذة منكرة تقوم علي التهويمات والتهويلات والتجريحات ـ علي حد تعبيره ـ فهل انقطع سيدنا محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ عن السعي علي الرزق بعد زواجه السيدة خديجة؟! وهل تزوجته السيدة خديجة إلا ليتجر في مالها؟ وهل اختارته لنفسها إلا لأنه الصادق الأمين؟!

ثم إن الرواية المزعومة بأن أباها حضر حفل خطوبتها مخمورا ووافق علي زواجها دون وعي رفضها أكثر علماء السيرة، لأن أباها مات قبل حرب الفجار التي شهدها النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ وعمره أربعة عشر عاما، وأكد الثقات من أهل التاريخ أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها، ذكر ذلك السهيلي والواقدي والطبري.

الحزب الهاشمى

دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية

القسم الثانى

تأسيس (١)

«إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء» ـ قالها عبدالمطلب بن هاشم، وهو يشير إلي أبنائه وحفدته، فبرغم التفكك القبلي في بيئة البداوة، التي عاشتها جزيرة العرب، فإن هناك من استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة بوجه خاص، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة؛ هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها (مكة) تحديدا، برغم واقع الجزيرة المتشرذم آنذاك.

وكان هناك من هو علي رأي عبد المطلب من ذوي النظر الثاقب، والفكر المنهجي المخطط الذين استطاعوا أن يصلوا إلي النتيجة نفسها؛ بعد قراءة واعية للخريطة السياسية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية، لكن الكثرة الغالبة لم تكن مع هذه الرؤي؛ حتي اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهراني العرب ـ كعرب ـ ما خطر لهم هذا التوقع قط، وإنما كانوا يترفعون علي سائر العرب، ويفاخرون بأن لهم من الأنبياء عددا وعدّة، ومن الأسفار المقدسة كتاب سماوي المصدر؛ ومن ثم أجاز الأستاذ العقاد لنفسه ـ وهو رجل متزن ومتوازن ـ أن يجزم قاطعا: «بأن شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق كان أعظم من كل شأن لها في جزيرة العرب»(١)، وهذه الحقائق التي يعنيها الأستاذ العقاد هي أنه برغم عدم قراءتهم الصحيحة لإفرازات الواقع علي الأقل بالنسبة لمكة؛ فإن حكاياتهم عن مغامرات أنبيائهم القدامي، وعن دولتهم الغابرة التي أنشأها الملك النبي داود، وما لحقها من تهويلات ومبالغات، كانت وراء الحلم الذي داعب خيال سراة العرب وأشرافهم؛ حتي بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة، مشرقا في الخيال، تدعمه ما بدأت تشهده الجزيرة في مناطق متعددة من محاولات لتوحيد القبائل سياسيا؛ سواء عن طريق التحالفات الجانبية التي شكلت نويات مرجوة لوحدة أكبر، أو عن طريق إخضاع قبيلة لأخري، أو التحالفات التي تتفق ومنطق البداوة، والتي كانت تتم بين القبائل المنتمية إلي سلف واحد، مما يجعل انتظامها تحت إمرة زعيم واحد أمرا أيسر، خاصة عند حدوث جلل طارئ أو خطر مشترك، ولا ننسي المحاولات الأخري المباشرة التي اتخذت صيغة الملك وصبغته؛ كمحاولة (زهير الجنابي) زعيم قضاعة تمليك نفسه علي بكر

وتغلب[٢]، أو الممالك التي قامت فعلا من زمن سابق لكن في ظروف مختلفة علي حدود الامبراطوريات الكبري ـ مثل مملكة الحيرة، ومملكة الغساسنة.

لكن بقية الناس ـ حتي داخل مكة ـ ممن كانوا يعتبرون أنفسهم عقلاء لم يكونوا مع هذا التفاؤل، ولا مع هذا الجموح في الآمال، فهذا الأسود بن عبدالعزي يقدم الاعتراض البدهي والواضح والمباشر؛ قائلا: «ألا إن مكة لقاح لاتدين لملك»[٣]، وهو اعتراض يستند إلي قراءة أخري؛ فالعرب ـ أيّاً كان الظرف الاجتماعي ـ لاتقبل بفرد يملك عليهم ويسود؛ لأن معني ذلك سيادة عشيرة علي بقية العشائر، وقبيلة علي بقية القبائل، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلي وتنفر منه، ولعل هذه القراءة تجد حجتها البالغة في تجربة رجل مثل النعمان بن المنذر، الذي ورث الملك أبا عن جد في مملكة الحيرة، ومع ذلك وقف يلقي خطابه أمام كسري الفرس، وفي حضرة وفود دول عدة، مدافعا عن عروبته بقوله:

> «فليست أمة من الأمم إلا وجهلت آباءها، وأصولها، وكثيرا من أوائلها، حتي إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا، فلا ينسبه ولايعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أبا فأبا، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولاينتسب إلي غير نسبه، ولايدعي لغير أبيه.. وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا، وتركهم الانقياد إلي رجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم، إذا أنست من نفسها ضعفا، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف، وإنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد، يعرف فضلهم علي سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمّتهم، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتي لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين»[٤].

والخطاب هنا ـ سواء صحت نسبته للنعمان بن المنذر أو لم تصح ـ لصاحب رؤية سياسية فذة؛ حاول أن يوضح ـ بإيجاز الظرف الاجتماعي العربي؛ الذي حال حتي هذا الوقت دون قيام وحدة سياسية كبري لعرب الجزيرة؛ ذلك الظرف المتمثل في **نظام قبلي، وعصبية عشائرية**، كانت من لزوم مايلزم عن شكل المجتمع البدوي غير المستقر، للإبقاء علي دوام وجود القبيلة؛ باعتبارها وحدة عسكرية مقاتلة يلزمها

التماسك اللزج دوما، والذي كانت مادته اللاصقة: رابطة الدم التي اكتسبت قدسية مفرطة، وهو ما يفسر الشكل الديموقراطي البدائي الذي تمتعت به القبيلة؛ بحيث وقف جميع الأفراد داخلها علي قدم وساق، بمساواة تامة، وبمعيار الانتساب لأب واحد، وذلك وحده كان كفيلا بإلغاء أي تمايز، إضافة لظرف آخر دعم هذه المساواة، وهو مواجهتهم جميعا لذات المصير دوما، كمقاتلين.

والخطاب يوضح أيضا - بشكل وضاء - الأسباب التي لم تؤد بالنظام البدوي إلي إفراز مؤسسات سياسية (ملكية) متوارثة؛ لأن القبيلة وحدة عسكرية طارئة، **وزعامتها بدورها أمر طاريء** متغير؛ تبعا لمقتضيات الصراع الناشيء وظروفه؛ تلك المقتضيات التي تحدد سمات الزعيم المطلوب آنيا، وعليه فالزعامة كانت تمنح منحا لصاحب القدرات التي تناسب الظرف ومقتضياته، وهي صفات مكتسبة لاتنتقل بالوراثة؛ علي حين ينضوي الجميع في الظروف الاعتيادية تحت لواء الأحكم، الأكبر، الأكثر دراية والأكثر قدرة علي المنح والعطاء، وفي كلتا الحالين **تظل المساواة حاضرة؛** مما جعل البدوي واعيا تماما لفرديته، مصرا علي الاعتداد بنفسه؛ بإسراف تمثله دواوين العرب في الحماسة، والفخر، والاعتزاز بالفرد أو بالقبيلة أو بالنسب.

وفي خطاب (النعمان) دعم آخر لوجهة نظر (الأسود بن عبدالعزي)؛ فهو يؤكد أن الأمم إنما تقبل الخضوع لملك فرد في وحدة سياسية، إذا «تخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف». وقد أثبت الحجاز - ومكة بالذات - أنه بعيد المنال، ولايتخوف نهوض عدوه إليه، فبينما كانت الممالك العربية قد وقعت تحت الاحتلال أو النفوذ الأجنبي - ففقدت اليمن استقلالها منذ الربع الأول من القرن السادس الميلادي، وسقطت تحت حكم الأحباش ثم الفرس، وفقدت مملكة الحيرة استقلالها وتحولت إلي إمارة يحكمها أمير فارسي، واضطربت أحوال المملكة الغسانية بعد أن قلب لها الرومان ظهر المجن - فإن منطقة الحجاز بمدينتيها الرائدتين (مكة ويثرب)، كانت تتمتع باستقلال نقي، هيأها له وضعها الجغرافي، ووعورة الطريق إليها؛ فكانت هي البيئة العربية الخالصة؛ البعيدة عن مجال الصراع الدولي، وعن التأثر بالحضارات الأجنبية؛ بدون أن تفقد التواصل معها، ولم تخضع لحاكم أجنبي، ومع ذلك فلم تكن فيها ممالك بالمعني الحقيقي، **ولا وحدة سياسية كبيرة تنتظم أمر قبائل الحجاز جميعا**، وهذا كله إنما هو دعم حقيقي لرأي (الأسود بن عبدالعزي)!

وإزاء كل هذه العوائق الواضحة، والمحبطات السافرة للحلم، وللأمل، وللتوقع، لم يجد الآخرون سوي الاهتداء إلي أنه لا حل سوي أن يكون منشيء الدولة المرتقبة نبيا مثل داود، وعندما وصلوا إلي هذا؛ فشا الأمر بسرعة هائلة بين العرب؛ حتي اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة، وآمن

هؤلاء بذلك، وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي؛ وإن ظلت المشاعر القبلية داخل النفوس التي تهفو للوحدة؛ وظن كل منهم أن الآتي سيكون منهم؛ مثل (أمية بن عبدالله الثقفي) الذي راودته نفسه بالنبوة والملك؛ فقام ينادي:

ألا نبي منا فيخبرنا ما بعد غايتنا في رأس محيانا؟

لكن العجيب فعلا ألا يمضي من السنين غير قليل، حتي تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة، تطوي تحت جناحيها ـ وفي زمن قياسي ـ ممالك الروم والعجم؛ بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم : محمد بن عبدالله (صلي الله عليه وسلم) أنه النبي المنتظر!

هوامش

١ ـ عباس محمود العقاد: طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٣.

٢ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦، ج١، ص ٢٠٦.

٣ـ عبدالملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ومحمد محيي الدين عبدالحميد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة ١٩٧٤، ج١، ص ٢٠٦.

٤ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د. عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ط٣، ١٩٨٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

تأسيس (٢)

يقول الدكتور (أحمد شلبي) في كتابه (السيرة النبوية العطرة): إن «أهم مصادر الثروة عند العرب، ارتبطت بالتجارة، وقد اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة؛ حتي قيل **إن كل عربي تاجر.** وكانت الجزيرة العربية تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الإبل في شبه مجموعات من السفن؛ تمخر عباب البحر الفسيح، وقد حلّت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذي كانت فيه الملاحة عسيرة.. وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل؛ أحدهما من الشمال إلي الجنوب؛ وغير بعيد عن البحر الأحمر؛ وهو في الشمال يتفرع إلي الشمال الشرقي تجاه سوريا، وإلي الجنوب الغربي تجاه فلسطين؛ وهو في الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت، أما الطريق الثاني فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلي الخليج العربي مارا بمكة؛ ويتفرع في قلب الجزيرة إلي فرعين: يتجه أحدهما إلي الشمال الشرقي فيصل شط العرب، ويتجه الآخر إلي الجنوب الشرقي ويسير مع الخليج العربي مارا بدبي ومسقط وظفار. ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشي ثم الفارسي، استطاع المستعمرون أن يسيطروا علي النشاط البحري الذي انكمش انكماشا ظاهرا، أما النشاط البري داخل الجزيرة، فقد انتقل إلي مكة؛ لأن نفوذ القوي الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلي قلب الجزيرة»(١).

ثم إن الدكتور (شلبي) يعمد إلي إعادة تفصيل هذه المسألة في موضع آخر من كتابه؛ فيقول: «إن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دورا مهما في تجارة العالم، في تلك الأزمان السحيقة.. ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر، التي تجعل الملاحة خطرا عليها، ومن عيوب الملاحة في البحر الأحمر أيضا أن شواطئه قليلة الموانيء، وأن به كثيرا من الشطوط الضحلة، التي كان اقتراب السفن منها أمرا محفوفا بالخطر، ولم تكن السفن تستطيع استعمال الخليج الفارسي؛ بسبب وجود الفرس علي ساحله الشمالي. وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط. وعلي هذا **أصبحت المواصلات البرية هي الطريق المهم للتجارة عبر البادية؛** بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة

والاستجمام طوال الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد، وكانت أيضا بمثابة مخازن يودعون فيها بعض المتاجر؛ لتلحق بقافلة أخري عبر طريق آخر» (٢).

ويضيف هنا الأستاذ (أحمد أمين) قوله: إن **«طريق البحر لم يكن طريقا مأمونا، فالتجأ التجار إلي البر يسلكونه،** ولكن طريق البر نفسه كان طويلا وخطرا؛ لذلك أحاطوه بشيء من العناية؛ كأن تخرج التجارة في قوافل، وأن تسير القوافل في أزمنة محددة، وطرق محددة»، ثم يشير إلي تحول هو جد خطير؛ برغم أنه كان ناتجا طبيعيا من **تحول مكة من مجرد محطة علي الطريق، تأخذ عشورها وضريبتها؛ إلي حاضرة تجارية تظهر فيها طبقة من التجار تحتكر الأمر لنفسها** فيقول:

«ثم انحط اليمنيون.. وحل محلهم في القبض علي ناصية التجارة عرب الحجاز، وكان ذلك منذ بداية القرن السادس للميلاد؛ فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين؛ ثم يبيعونها علي حسابهم في أسواق الشام ومصر، وقليلا ما كانوا يبيعونها في أسواق فارس؛ لأن التجارة مع الفرس كانت في يد عرب الحيرة، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم» (٣).

ومصداقا لقول الأستاذ (أحمد أمين)نجد الروايات الإخبارية تجمع علي قيام (تبع) ملك اليمن في وقت مبكر بحملة لإخضاع مكة ويثرب؛ كأهم المحطات التجارية علي الطريق، ويقول (المسعودي): «وهو الملك السائر من اليمن إلي الحجاز، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب، وأراد هدم الكعبة؛ فمنعه من كان معه من أحبار يهود» (٤). كما تجمع هذه الروايات علي عدد آخر من محاولات ملوك حمير التبابعة، لتوسيع نفوذهم وسيطرتهم علي الخطوط التجارية في أماكن مختلفة من الجزيرة، ومنها قيام (تبع بن ملكي كرب) بتجريد حملتين: الأولي علي طريق التجارة مع الفرس، وقصدت منطقة الحيرة، والثانية علي طريق الشام مصر، وقصدت الحجاز (٥)؛ هذا إضافة إلي حملة الفيل المشهورة علي مكة. ولعل الصراع الذي نشأ في اليمن بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية كان ناتج سعي الرومان للحد من نفوذ اليمن وسيطرته علي الشريان التجاري، وعادة ما اتخذ مثل ذلك الصراع أشكالا دينية، وقد بدأ بلا جدال في تحالف الحبشة ـ كمنافس لليمن ـ مع الروم، واعتناق المسيحية؛ من أجل دعم سيطرتهم علي الطريق التجاري، ثم ظلت اليمن محلا لاصطراع الروم والفرس، أو اصطراع المسيحية المدعومة من الروم واليهودية المدعومة من الفرس،

لظروف اقتصادية بحتة؛ حتي الفتح الإسلامي سنة ٦٢٨م.

وقد فشلت الحملات جميعا علي الحجاز ولم تحقق أغراضها. وما إن أطل القرن السادس علي ربعه الأخير حتي بدأت المنافسة بين مكة ويثرب: أهم محطتين في الحجاز، تبدو أكثر وضوحا، وكان ممكنا أن تصبح يثرب صاحبة شأن خطير في العصر الجاهلي، بحسبانها محطة مرور ضرورية يمر عليها الطريق التجاري القادم من مكة شمالا، لولا دخولها مرحلة تمزق ، نتيجة الخلافات الداخلية التي ربما كان سببها تركيبها الهجين، فبرغم تجانس السكان ـ فسكانها من الأوس والخزرج من اليمن وبطون اليهود يعودون إلي أصول يمنية ـ فإن العامل الديني ووجود اليهود فيها كان لاشك عاملا مؤججا للصراع الداخلي؛ حتي أشرفت علي هلاك كامل؛ أدي بها إلي محاولة سبق لمكة؛ فكادت تقوم بها مملكة علي يد (عبدالله بن أبيّ بن أبي سلول) قبل الهجرة النبوية إليها(٦).

ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث في يثرب، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومي معبس ومضرس، وهو مما يلقي الضوء علي المستقبل القريب، **عندما يتحالف أهل يثرب وعلي رأسهم الخزرج مع النبي (صلي الله عليه وسلم) ضد قريش،** ويفسر لنا التحالف الذي سبق ذلك بين عبد المطلب بن هاشم ممثلا لبني هاشم، وبين الخزرج من أهل يثرب.

ومع نهاية القرن السادس الميلادي نجد مكة تقف علي الطريق؛ مالكة لمركز رئاسي لاشك فيه، بعد أن أتاحت لها الظروف الداخلية تجميع التجارة الخارجية في يدها، وأتاحت لها الظروف الخارجية أن تستغل الأوضاع العالمية لصالحها، خاصة الصراع الدولي الهائل بين الروم والفرس في الشمال والجنوب، وهو الأمر الذي أعانها علي **القيام بأمر تجارة العالم، والنجاح فيه بكفاية، أكسبت أهل مكة ثروة عظيمة،** فحظيت باحترام عربي عام؛ حتي باتت مؤهلة للزعامة، في وقت أخذ فيه العرب يتطلعون إلي منطقة عربية مستقلة؛ تتولي زعامة النهضة العربية وتقودها، أو كما يقول الدكتور أحمد الشريف: «أصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة في قيام نهضة قومية عربية، واطمأنت قريش إلي هذا المركز، وعملت علي دعمه، وحرصت علي دوامه»(٧).

هوامش

١ ـ د. أحمد شلبي: السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٧، ج١، ص ١٢٤.

٢ـ نفسه: ص١٥٣.

٣ـ أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، ١٩٨٧، ص١٢ و١٣.

٤ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ج٢، ص٧٦.

٥ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص ١٠٨.

٦ـ محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٧٩، ص٥٩: ٦٢.

٧ـ د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ص٢٣٨

الكعبات

هكذا تناثرت ـ في الوسط الاجتماعي العربي ـ جماعات البشر علي هيئة قبائل متنافرة؛ لاحكم فيها ولا سلطة إلا للعرف القبلي، الذي يختلف بدوره باختلاف القبائل وظروفها. ومع تعدد القبائل تعددت المشيخات وكثر الشيوخ وأبطال الغزو؛ أولئك الذين تحولوا بعد موتهم إلي أسلاف مقدسين، وأقام لهم أخلافهم التماثيل والمحاريب، ليلتمسوا عندهم العون كلما حزبهم أمر أو حل بهم جلل، ومن أجل هؤلاء الصالحين السالفين؛ أقيمت بيوت العبادة، وشرعت طرق التقرب إلي الأرباب أو الأسلاف (الرب لغة هو سيد الأسرة أو القبيلة وهو بعلها)؛ ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد الأبطال والصالحين الراحلين، **وبتعدد الأرباب تعددت الكعبات؛** حيث كانت الكعبة (البناء المكعب) هي الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية، وأحيانا أخري كانت هذه الكعبات تقام تقديسا للأحجار الغريبة والنادرة؛ مثل الأحجار البركانية أو النيزكية، وكلاهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق، ونظن هذا التقديس ناتجا ـ إضافة لغرابة شكل الحجر ـ من كونه قادما من عالم غيبي مجهول؛ فالحجر البركاني مقذوف ناري ـ من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات، واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين ـ كذلك الحجر النيزكي، وربما كان أكثر جلالا، لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية سماوية تخلب لب البدوي المبهور؛ فهو يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازي؛ فيشتعل مضيئا ومخلفا وراءه ذيلا هائلا، لذلك؛ كان هول رؤيته **في التصور الجاهلي** دافعا لحسبانه ساقطا من عرش الآلهة في السماء؛ حاملا معه ضياء هذا المكان النوراني؛ ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتكريم والتبجيل.

ومع كثرة الأحجار القادمة من عند الأسلاف، أو الهابطة من السماء؛ كثرت أيضا الكعبات. وعن الكعبات ومحجات العرب يقول الباحث (محمود سليم الحوت): «يجب ألا يخطر علي بال أحد أن مكة ـ وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة ـ هي القبلة الوحيدة في الجزيرة؛ فقد كان للعرب كعبات عديدة أخري تحج إليها في مواسم معينة وغير معينة، تعتر (تذبح) عندها، وتقدم لها النذور والهدايا، وتطوف بها، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قد قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة»(١).

وقد اشتهر من بيوت الآلهة أو الكعبات ما وجدنا ذكره عند الهمداني (بيت اللات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الإيادي، وكعبة غطفان)(٢)، وما ذكره الزبيدي (بيت ذي الخلصة المعروف بالكعبة اليمانية)(٣)، وما جاء عند ابن الكلبي (بيت ثقيف)(٤)،

إضافة إلي ما أحصاه جواد علي (كعبة ذي الشري، وكعبة ذي غابة الملقب بالقدس)، ومحجات أخري لآلهة مثل (اللات، وديان، وصالح، ورضا، ورحيم، وكعبة مكة، وبيت العزي قرب عرفات، وبيت مناة)(٥)، هذا مع ما جاء في قول الأستاذ العقاد عن «.. البيوت التي تعرف **ببيوت الله أو البيوت الحرام،** ويقصدها الحجيج في مواسم معلومة تشترك فيها القبائل.. وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة، وهي بيت الأقيصر، وبيت ذي الخلصة، وبيت رضاء، وبيت نجران، وبيت مكة.. وكان بيت الأقيصر في مشارف مقصد القبائل؛ من قضاعة ولخم وجذام وعاملة. يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده.. **فالأمر الذي لايجوز الشك فيه أن البيوت الحرام وجدت في الجزيرة العربية؛** لأنها كانت لازمة.. وقد اجتمع لبيت مكة من البيوت الحرام مالم يجمع لبيت آخر في أنحاء الجزيرة؛ لأن مكة كانت ملتقي القوافل؛ بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب»(٦). ويفهم من العقاد أن هذه البيوت كانت محرمة ولها أيامها الحرام، لكن بيت مكة بالتحديد أخذ في التمايز؛ لموقع مكة العظيم علي طرق القوافل التجارية جميعا؛ حتي جاء وقت ـ كما قلنا ـ أصبحت فيه مكة ملتقي تجارة العالم، وأصبح أهلها أهم تجار الدنيا.

ويمكننا هنا التمييز بين مفهوم العربي الجاهلي لمعني الألوهية ومعني الربوبية؛ فالألوهية تعني إلها غير منظور يسكن السماء، ومن هناك يتساقط ملاط بيته الإلهي من آن لآخر؛ علي هيئة أحجار سوداء، في حين أن الربوبية تشير إلي تقديس للأسلاف يتفق حجمه مع أهمية رابطة الدم عند العربي البدوي. وعلي هذا النحو؛ عبد النبطيون حجرا أسود يرمز إلي الشمس كإله للسماء(٧)، وعبد الهذليون حجرا أسود يرمز لمناة، وكان ذو الشري حجرا أسود، وكذلك كانت الكعبة المكية إطاراً لحجر أسود(٨)، كما كانت باقي الكعبات تتسم بذات السمة؛ فهي أطر لأحجار سود. وسميت هذه الكعبات بيوت الله؛ **لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الإله الذي في السماء؛** تمييزا له عن الأرباب التي لم تكن سوي مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع في أفنية الكعبات؛ انتفاعا ببركات الأسلاف الصالحين، وتشفعا بهم عند إله السماء.

وواضح لدي أي باحث **أن هذا التفرق العقائدي، وتعدد العبادات والأرباب؛ قد ساعد بفعالية في زيادة الفرقة القبلية،** بحيث أصبح عائقا دائما ومستمرا في سبيل المحاولات التي قامت من أجل خلق كيانات سياسية في جزيرة العرب؛ إضافة إلي الطبع القبلي الذي يأنف كبرياؤه وينفر من فكرة سيادة سياسية واحدة ـ تلك

المحاولات التي سبق أن أشرنا إليها ـ مثل محاولات زهير الكلبي، وعبدالله بن أبي، وكندة، والغساسنة، والمناذرة، وكان الدافع إليها جميعا حلما وأملا أججه الشعور الآتي بإمساك عنان تجارة العالم، ووجود هذا العالم مسترخيا ينزف في حروب طال مداها بين الإمبراطوريات الكبري.

ولاتفوتنا الإشارة إلي أن مثل هذه المحاولات اتسمت بروح العصبية العربية الخالصة التي تجلت بدءاً في اعتناق المناطق العربية الواقعة تحت النفوذ الإمبراطوري؛ أيديولوجيات أو مذهبيات دينية تخالف مذاهب الإمبراطوريات؛ حتي بلغ الطموح مداه في هجمات عربية متفرقة ـ لكنها شرسة ـ كرا وفرا؛ علي حدود الدول العظمي؛ إلي درجة أن الشعور العربي بلغ أوجه؛ متمثلا في فرح عام بالجزيرة كلها، عندما انكسر الفرس بعظمتهم وجبروتهم أمام حلف عربي صغير لقبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل؛ في وقعة ذي قار(٩)؛ مما دفع بالحلم إلي الخروج من ساحة التمني إلي ساحة التوقع؛ وربما التحقيق! مرهونا بشرط واحد هو تحالف وتوحد كتوحد العرب في ذي قار؛ ذلك التحالف الذي بدأت تباشيره في شعور عام دفع الوفود القبلية من كل صوب وحدب، إلي أن تحث خطاها بين الفيافي والقفار نحو اليمن؛ لتهنيء معد بن يكرب أو سيف بن ذي يزن بطرده الأحباش، وبعودة الحكم العربي إلي اليمن.

هوامش

١ـ محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٣٣.

٢ـ الهمداني: الإكليل، بغداد، ١٩٣١، ج٨، ص ٤٨.

٣ـ الزبيدي: تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ج٢، ٢٧١.

٤ـ الكلبي الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤، ص١٦.

٥ـ د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج ٥، متفرقات صفحات: ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.

٦ـ العقاد: طوالع البعثة المحمدية، ص١٣٠ و١٣١.

٧ـ د. خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٣.

٨ـ الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٥٩:٦٢.

٩ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص ٢٠٠.

مكة :
حلم السيادة

وقد لعب جدل السياسة الدولية، وما تبعه من تغيرات هائلة علي المستوي الاقتصادي؛ دورا خطيرا لصالح عرب الجزيرة؛ وبخاصة في يثرب ومكة؛ حيث أخذت أوضاع الخط التجاري تضطرب وتتقلب؛ مما أثر علي بنية التركيب الاجتماعي في المدينتين؛ وبخاصة مكة التي تطورت كمحطة مرور علي طريق القوافل التجارية، حتي أضحي أهلها في حالة تناقض مع الشكل الاجتماعي البدوي المتفكك وغير المستقر؛ فبدأت تدخل مرحلة تحولات بنيوية واضحة في تركيبها الاجتماعي، وبدأت تضمحل في داخلها التركيبة القبلية، مع إفراز جديد لمواقع سلطة ومؤسسات لم تكن موجودة من قبل، وهو إفراز طبيعي للاستقرار والملكية، وما يتبعه بالضرورة من صراع حول امتلاك وسائل الإنتاج، ثم السلطة السياسية؛ بعد أن اشتدت الحاجة إلي استقرار أمثل، للقيام علي شئون هذا العمل التجاري الهائل، وتقسيم الأدوار حول هذا العمل، ثم الحاجة إلي حراسة وحماية قوافل التجارة التي أصبحت تجارة المكيين أنفسهم، وأموالهم هم، وتوفير جو من الأمن العام، وما يترتب علي ذلك من ضرورة إنشاء جيش منظم للقيام بالأمر؛ كان أهم عناصره وركائزه طبقة العبيد، **ومن ثم كان حتميا أن يتطور المجتمع المكي من مجتمع يعيش ديموقراطية ومساواة بدائية إلي مجتمع متمايز طبقيا.**

ويشرح لنا الدكتور (أحمد الشريف) ظروف المجتمع المكي من الداخل؛ فيقول: «.. غير أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا؛ فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة من الناحية الاقتصادية.. وكان التفاوت الطبقي موجودا علي الرغم من الإحساس بالقرابة، ووجود علاقات الحلف والولاء، وعلي الرغم من الإحساس النفسي العام بالمساواة - ومتمثلا في الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء وطبقة الموالي، بالنظر إلي ما كانت تكفله الثروة وشرف البيت لصاحبها؛ من تأهيل للدخول في مراكز القيادة والزعامة.. وكان العرب يتطلعون إلي مثل جديدة في الأخلاق والاجتماع تساير الطبع العربي»(١).

وعليه فقد تهيأت مكة لإفراز عناصر قيادية عربية، **كما قدرت أحداث الجدل الدائر للكعبة المكية أن تكون الكعبة الأولي والمحج الأقدس؛ دون غيرها من الكعبات**، وساعد علي ذلك أسواق مكة المختلفة ومواسمها المتنوعة التي وضعت لجذب التجار؛ ثم انتشرت لغة قريش وعاداتها بين القبائل الحالة والمرتحلة؛ بعد أن حتمت مصالح القرشيين التجارية عليهم اليقظة والاهتمام بما يجري حول جزيرتهم من أحداث،

لتأثير هذه الأحداث المباشر علي ما بأيديهم، وكان هذا الوعي دافعا لنزعة قوية من التسامح الديني، ولنضوج ميزهم عمن حولهم من أعراب؛ فاستضافوا في كعبتهم المكية الأرباب المرتحلة برفقة أصحابها التجار وقاموا بتبني هذه الأرباب تدريجيا، فكان أن تركها أصحابها في كعبة مكة، ليعودوها في مواسمها؛ فكثرت المواسم المكية بالاحتفالات الدينية بالأرباب المختلفة، وكثر أيضا الخير والبركة من التجارة، وكان حتميا أن تهفو قلوب العرب وتجتمع عند كعبة فيها أربابهم ومعاشهم وأمنهم ومرحهم وسمرهم، وأن يضمحل بالتدريج شأن بقية الكعبات التي توارت في الظل ثم في الزوال حتي طواها النسيان.

وكان موقع مكة الجغرافي بعيدا عن يد البطش الامبراطوري (فارسية أو رومانية)، إضافة إلي حالة الضعف والانهيار التي أصابت هذه الامبراطوريات؛ مع الفشل الذريع الذي منيت به المحاولة اليتيمة من روما لضرب مكة كمركز تجاري قوي بواسطة جيش أبرهة الحبشي في عام الفيل، عوامل مجتمعة ساعدت علي صعود النجم المكي واتساع السطوة المكية؛ مما أعطي القرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذي حتمته الظروف عليهم؛ خاصة بعد أن تدهورت اليمن مرة أخري، وأصبحت قاصرة عن القيام بهذا الدور، وانتهت كتابع للدولة الفارسية.

وإن ارتفاع النجم المكي وصعوده بعد حملة الفيل، أمر يحتاج إلي الوقوف معه وقفة سريعة؛ توضح لنا إلي أي مدي بلغ أمر قريش في نفوس القوم، إلي الحد الذي دفع العرب جميعا إلي رجم قبر أبي رغال؛ دليل الجيش الغازي، وإلي الاعتقاد الواثق برب الكعبة المكية الذي صد عن بيته جيشا ما كان ممكنا أن يصده العرب؛ تلك الثقة التي تجلت في الاعتقاد **بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوي فريد في نوعه**، إذ أرسل الله علي الجيش طيورا ترميه بالأحجار، وينقل السهيلي عن النقاش :« أن الطير كانت أنيابها كالسباع، وأكفها كأكف الكلاب، وذكر البرقي أن ابن عباس قال: إصغر الحجارة كرأس الإنسان، وكبارها كالإبل» وهذا الذي ذكره البرقي ذكره ابن إسحق في رواية يونس عنه، وفي تفسير النقاش أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر(٢). وبهذا الاعتقاد أرسل (رؤبة بن العجاج) رجزه قائلا:

ومسهم مامس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل
ولعب بهم طير أبابيل فصيروا مثل عصف مأكول(٣)

ويروي ابن هشام في متن شرح السهيلي للسيرة: « .. **وكان اسم الفيل محمودا**، فلما

وجهوا الفيل إلي مكة أقبل نفيل بن حبيب حتي قام إلي جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك يامحمود، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه؛ فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتي أصعد الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبي، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبي، فأدخلوا محاجن لهم مراقة فبزغوه بها فأبي، فوجهوه راجعا إلي اليمن فقام يهرول. فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها؛ حجر في منقاره وحجران في رجليه؛ أمثال الحمص والعدس لاتصيب منهم أحدا إلا هلك»(٤).

وابن نفيل صاحب هذه الكرامة، تمتد كراماته في التراث لتلحق حفيده (عمر ابن زيد بن نفيل) علي ما سنري، وابن نفيل يسجل شهادته علي ما حدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيرا وخفت حجارة تلقي علينا(٥)

وذات الحديث هو أيضا ما دفع (عبد الله بن الزبعري) ليرسل شعره قائلا:

تنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لايرام حريمها
لم تخلق الشعري ليالي حرمت إذ لاعزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأي ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ولم يعش بعد الإياب سقيمها(٦)

أما (عبد المطلب بن هاشم)زعيم قريش أنذاك فقد نصح بعدم التعرض لجيش أبرهة، وبأن يترك مكة أهلها إلي شعاب الجبال، ثم توجه إلي أبرهة مع يعمر بن نفاثة وخويلد بن وائلة، **يعرضون عليه ثلث أموال تهامة** علي أن يرجع عنهم فرفض(٧)، فرجع عبد المطلب يناجي ربه:

اللهم إن العبد يمنع حله فامنع حلالك
لايغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك(٨)

أما ابن هشام فيتابع سرد الأحداث قائلا: «.. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما، حتي قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتي انصدع صدره عن قلبه فيما

يزعمون، قال ابن إسحق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: **إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في أرض العرب ذلك العام**»(٩) **وهو مايترك في الجسد مثل الحمص والعدس**، وأما الأستاذ عباس العقاد فكان يبدو على قناعة تامة بدور الجدري في هزيمة جيش الفيل، فيقول مؤكدا جازما قاطعا: «وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لاشك، **وهو فتك الجدري بجنود أبرهة** وانهزامه عن البيت.. إن حديث الجدري الذي فشا سنة ٥٦٩ مثبت.. في تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطي المعروف»(١٠).

ثم يختم ابن هشام الأمر بإعلان نتيجة حدث الفيل العظيم بقوله :«.. فلما رد الله الحبشة عن مكة، وأصابهم ما أصابهم من النقمة، أعظمت العرب قريشا، وقالوا: **هم أهل الله، قاتل الله عنهم**»(١١).

أما كيف دخلت مكة هذا الدور؛ فهو ما سيعود بنا إلي عهد استفاضت في ذكره كتب التراث؛ ذلك العهد الذي استطاعت فيه قريش أن تستولي علي مكة قبل زمن الفيل بزمان، تحت قيادة (قصي بن كلاب)؛ ذلك القرشي الذي استطاع بعبقرية من نوع نادر أن يكون في مكة سيدا مطلقا.

هوامش

١ـ أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٤٢:٢٤٤.

٢ـ عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرءوف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج١، ص٧٢.

٣ـ ابن هشام: السيرة النبوية ج١، ص٤٧ :٥١.

٤ـ ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص٧١.

٥ـ ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٤٧ : ٥١.

٦ – ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١ ص ٦٩

٧ـ نفسه: ص٧٠.

٨ـ نفسه: ص٧٣.

٩ـ نفسه: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص٧٣.

١٠ـ العقاد: طوالع البعثة المحمدية، ص١٤٥ و١٤٦

١١ـ ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص ٧٧.

قصى
ابن كلاب

تنبئنا كتب الأخبار أن محاولات السيطرة علي مكة مسألة قديمة. تعود في قدمها إلي قبيلة جرهم وهي من أصل يمني قحطاني، وكيف أنه قد اصطرع حول مكة عرب الجنوب القحطاني وعرب الشمال العدناني، فتنتقل من سيادة جرهم إلي سيطرة إياد بن نزار، ليغلبه عليها بعد ذلك مضر، ومن مضر تنتزعها خزاعة اليمنية مرة أخري، لينتهي بها الأمر إلي الاستقرار في يد قريش؛ في قبضة قصي بن كلاب.

ومن البداية كان واضحا مدي **دهاء قصي ووعيه السياسي**، وإدراكه لما يحدث علي المستوي الاجتماعي من جدل وتغير مطرد؛ إبان سعيه العبقري للاستيلاء علي السلطة، وانتزاعها لقريش من خزاعة؛ فقام يتودد إلي حليل؛ سيد خزاعة، وأدي الود إلي وداد المصاهرة، فتزوج قصي بنت حليل. وهنا يروي ابن هشام؛ فيقول: «إنه لما هلك حلَيل.. رأي قصي أنه أولي بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة.. فكلم رجالا من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلي إخراج خزاعة من مكة، وبخدعة استطاع أن يشتري من أبي غبشان الخزاعي ـ وكان عجوزا خرفا ـ مفاتيح الكعبة، مقابل زق من الخمر وقعود في ليلة سامرة، ويقول الحافظ ابن كثير: «فاشتري قصي ولاية البيت منه بزق من الخمر وقعود؛ فكان يقال: أخسر من صفقة أبي غبشان»، ويزيد ابن هشام بقوله: «فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا؛ أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، **فحاز شرف مكة كلها**»(١).

ونفهم من كتب التراث أن خزاعة لم تستطع استعادة أمرها علي مكة، بعد أن تحالف مع قصي القرشيون والكنانيون وغيرهم، حتي انتهي الأمر بطرد الخزاعيين من مكة، وتولي قصي أمر الكعبة، وبدأ بفرض الضرائب والعشور علي القوافل التجارية المارة بمكة؛ مقابل تأمينهم، وتأمين السقاية والرفادة لهم، ويقول (المسعودي): «واستقام أمر قصي، وعشر علي مَنْ دخل مكة من غير قريش، **وبني الكعبة**، ورتب قريشا علي منازلها في النسب بمكة»(٢)، وهو قول يشير إلي تطور في خطط قصي لرفع شأن دولته المكية عن طريق الكعبة واستضافتها أرباب القبائل الأخري، ثم إن (المسعودي) يربط بين خطط قصي ومعني التقريش (من قريش) والإيلاف (بمعني الأمن)؛ وهو أمر يظهر وعيا سياسيا واضحا تمثل بعد استيلائه علي السلطة في إيفاد الرسل إلي الممالك علي أطراف الجزيرة؛ لإقامة علاقات مع هذه الممالك؛ ليعطي مكة بذلك دور الدولة، وبهدف طمأنة هذه الممالك علي تجارتها؛ ليستمر النشاط المار بمكة، فيقول المسعودي :«وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن، وتقرشت، والتقريش الجمع»(٣).

في حين يشير ابن كثير إلي منحي ثانٍ في معني التقريش وقريش؛ يظهر بوضوح بداية تكون المجتمع المستقر، مرتبطا بالنشاط الاقتصادي، أو التغير في بنية المجتمع المكي؛ مع الاستقرار الملازم لتعاظم دورها لتصبح أهم محطة ترانزيت، ثم كان محتما أن تكون أكثر المحطات أمانا؛ قياسا علي ما أفرزه الواقع السياسي العالمي، من انهيار تام لأنظمة حفظ الأمن التجاري علي الخطوط الدولية، وما نتج عن ذلك من تراكم الثروة اللازمة لتحولات المجتمع المكي، وذلك بربطه بين معني القرش، ومعني الكسب والتقرش؛ فيقول: «وأما اشتقاق قريش؛ فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق، وذلك في زمن قصي بن كلاب؛ فإنهم كانوا متفرقين لجمعهم بالحرم، وقد قال حذافة بن غانم العدوي:

أبوكم قصي كان يدعي مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

.. وقيل سميت قريش من التقرش، وهو التكسب والتجارة، وحكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهري: القرش الكسب والجمع، وقد قرش يقرش.. قال البيهقي.. إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه يقال لها القرش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته.. فأنشده شعر الجمحي إذ يقول:

وقريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا ... تتركن لذي الجناحين ريشا

هكذا في البلاد هي قريش ... يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبي ... **يكثر القتل فيهم والخموشا**(٤)

وكان أبرز مؤسسات قصي السياسية هو دار الندوة التي بناها، والتي ربما كانت ذات الكعبة أو فناءها، فكانوا يجتمعون إليه ليقضي بينهم ويدير أمور دولته الصغيرة، ومن بعده كانت قريش تجتمع فيها لتتشاور في حربها وسلمها، ومن هناك تعقد ألويتها(٥)؛ مما يعني دخول قريش مرحلة متحضرة وشوطا بعيدا، ابتعد بها عن النظام المشيخي القبلي الذى حلت محله دار الندوة، ومَثَّل القبائل فيه كبراؤهم أو (الملأ)، وهو مما سيفرز ـ بالضرورة ـ بداية الصراع حول امتلاك وسائل الإنتاج والسلطة السياسية كما سيأتي بيانه؛ فبالندوة ابتعد قصي بقريش وبمكة عن القبلية باتجاه الحضارة، وحل الملأ محل الشيوخ، وحلت الندوة محل الديموقراطية البدوية.

ثم يقول ابن كثير: «.. فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكا، أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة أرباعا بين قومه؛ فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.. فكانت لقصي ابن كلاب جميع الرئاسة، من حجابة البيت وسدانته، واللواء، وبني داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة»(٦)· ولعله من الواضح أن اللواء أو قيادة الجيش، كان الإفراز الأخطر لجدل الأحداث، لبناء جيش قوي يمكنه الوفاء للملوك بالعهود، وتأمين التجارة التي استبدلت ببحر الرمال في الجزيرة بحار الدنيا بحروبها وويلها.

ولايغيب عن فطن أن امتلاك قصي السيادة علي مكة، قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة؛ قامت علي وعي سياسي نافذ هادف نحو غاية؛ وسائلها هي:

الدين؛ ممثلا في الكعبة المكية؛ حتي قال ابن الأثير :**«كان أمر قصي فيهم شرعا متبعا**، معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره»(٧)· وقال الطبري: «فكان أمره في قومه في حياته وبعد موته **كالدين المتبع»**(٨)·

والمال؛ وقد تيسر من عشور التجارة، وتأليف القلوب حوله؛ بالبذل والعطاء كالملوك؛ من خلال السقاية والرفادة.

وهكذا؛ استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف الرئيسية والدينية والتشريعية؛ فكان أول سيد مطلق النفوذ في دولته الصغيرة؛ مكة.

هوامش

١ـ ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٠٩ :١١٥ . انظر أيضا ابن كثير: البداية والنهاية، تدقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ج٢، ص ١٩٤.

٢ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٥٨.

٣ـ نفسه: ص٩٥.

٤ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١٨٧.

٥ـ البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٠.

٦ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٢.

٧ـ ابن الأثير: الكامل، ج١، ص١٨٣.

٨ـ ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٢، ص٢٥٩.

الصراع على السلطة بعد قصى

إيمانا منه بفردية الحكم المطلق، وحتي لاتتفرق مكاسبه وتتناثر؛ ترك قصي بن كلاب كل سلطاته ووظائفه وسنته الزكية، لولده البكر عبد الدار، دون أخيه عبدمناف؛ ورحل إلي عالم الأسلاف، بعد أن أسس لقريش **دولتها الواحدة في مكة**، ولكن قصي ما كان يعلم أن الحقد سيتملك قلب عبد مناف علي ملك عبد الدار وما حظي به من تشريف؛ فكان أن توارث الأبناء أحقاد الآباء، وقام أبناء العمومة يستعدون القبائل علي بعضهم وتجمع بنو عبد مناف مع مؤيديهم في حلف المطيبين؛ فرد عليهم بنو عبد الدار وحزبهم بحلف الأحلاف، وتجمع الفريقان للقتال من أجل السيادة علي مكة. ويشرح ابن كثير الأمر في قوله: «ثم لما كبر قصي؛ فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها؛ من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلي ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده.. فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك وقالوا: إنما خصص عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته؛ فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبدالدار هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به، واختلفوا اختلافا كبيرا، وانقسمت بطون قريش فرقتين؛ فرقة بايعت بني عبد الدار وحالفتهم، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم علي ذلك»(١).

ولعله واضح لمن أصاب خبرة ودربة مع كتب التراث؛ انحياز هؤلاء الكتّاب الواضح لحزب عبد مناف، فيما وضعوه من تفاسير للأمر والتسميات؛ كما ورد ـ كمثال ـ في شرح السيرة الحلبية لما حدث: «فلما مات عبد الدار وأخوه عبدمناف؛ أراد بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب، وهؤلاء إخوة لأب وأم.. ونوفل أخوهم لأبيهم.. أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار، وأجمعوا علي المحاربة.. وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا علي أنفسهم؛ فسموا المطيبين.. فتطيب منها بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزي، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون من قريش خمس قبائل ، وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب، علي ألا يتخاذلوا ولايسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما، من دم جزور نحروها.. وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا لعقة الدم»(٢).

وكان واضحا أنه برغم هذا الاصطراع؛ أن المصلحة الاقتصادية العامة فرضت نفسها علي جميع الأطراف؛ فكان الحرص علي المصالح التجارية، وما سبق وحققه

قصي من هيبة لقريش؛ عاملا جوهريا في حقن الدماء، وانتهي الأمر بالسلام؛ حيث تقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروث حيث نجد (برهان الدين الحلبي) يتابع في سيرته القول: «... ثم اصطلحوا علي أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء لبني عبد الدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك»(٣)، لكن الواضح للمتعامل مع كتبنا الإخبارية أن بني عبد مناف قد علا نجمهم وفشا أمرهم؛ إلي حد أنهم كانوا هم سفراء الأمان والإيلاف لدول العالم الكبري حينذاك، وهو مالاحظه الدكتور (أحمد شلبي) وسجله بقوله: «وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلي الجهات الرئيسية الأربع التي كانت تتجه إليها قريش، فكان هاشم يتجه إلي الشام، وعبد شمس إلي الحبشة، والمطلب إلي اليمن، ونوفل (أخوهم غير الشقيق) إلي فارس، وكان تجار قريش يذهبون إلي هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة، لا يتعرض لهم أحد بسوء»(٤). أما ابن كثير فقد أكد أن بني عبد مناف قد «**صارت إليهم الرياسة**، وكان يقال إنهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم، ليدخلوا في التجارات إلي بلادهم»(٥).

وقد استقرت ألوية الشرف (القيادة والسقاية والرفادة) المنتزعة من بيت عبدالدار لبيت عبد مناف، في يد هاشم بن عبد مناف بالتحديد دون بقية إخوته، لذا فما إن رحل أخوه عبد شمس عن الدنيا حتي ساورت ولده أمية الأطماع في أخذ ما بيد عمه من ألوية الشرف بالقوة، ووقف نوفل مؤقتا علي الحياد، وكادت الحرب تقطع صلات الرحم، وتهدر الدم الموصول، ومرة أخري تفادي القوم الكارثة، فرضوا بالاحتكام إلي كاهن خزاعي؛ فقضي الكاهن بنفي أمية بن عبد شمس عشر سنوات إلي منفي اختياري، ولم يجد أمية بدا من الرضي بحكم ارتضاه؛ فشد رحاله إلي بلاد الشام ليقضي بين أهلها من السنوات عشراً(٦).

وهكذا: دارت العداوات حول هاشم؛ عداوة بنى عبد الدار، وعداوة بني عبدشمس الذي انضم إلي حزب عبد الدار (ونوفل يقف محايدا): عداوة بني عبدالدار لاعتبار ما بيد هاشم من ألوية شرف هو حق خصهم به جدهم قصي، وعداوة بني عبد شمس لاعتبار أنفسهم شركاء في التشريف الذي ناله هاشم بن عبدمناف.

وكانت السنوات العشر التي قضاها أمية بن عبد شمس في منفاه الشامي رصيدا لبيته الأموي من بعده ؛ فقد ارتبط هناك بأهلها بأواصر السنين والمصاهرة التي كانت لأبنائه ذخرا وعتادا؛ حيث قامت هناك دولة كبري بعد سنين؛ يرأسها حفيده معاوية؛ تلك التي عرفتها الدنيا باسم الدولة الأموية، وكان حكم الكاهن الخزاعي مدعاة لفرقة وفجوة بين

بيت هاشم وبيت عبد شمس وولده أمية؛ ورثها الأبناء والحفدة؛ حتى فيما بعد قيام الدولة الإسلامية؛ حيث استمر الصراع ممثلا في الأمويين (نسبة لأمية بن عبد شمس) والعباسيين (نسبة للعباس بن عبدالمطلب بن هاشم الذي ظلت بيده ألوية الشرف؛ من سقاية ورفادة بتصريح من النبي صلى الله عليه وسلم)، أو بين المذهب الشيعي والمذهب السني. ورغم محاولات قريش رأب الصدع مبكرا، بعقد حلف الفضول بين الأطراف المتنازعة، فإن الصدع استمر يغور ويتسع ـ باستمرار وإصرار ـ بين أبناء العمومة(٧).

هوامش

١ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص ١٩٤.

٢ـ برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢١، ٢٢.

٣ـ نفسه: ص٢٢.

٤ـ أحمد شلبي: السيرة، ج١، ص١٢٧.

٥ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٦.

٦ـ الطبري: التاريخ، ج٢، ص١٢٣.

٧ـ ابن هشام: السيرة، ج١، ص١٢٣.

بنو هاشم من التكتيك الى الأيديولوجيا

علي الرغم من أن ألوية السيادة المستقرة في بيت عبد الدار قد كفلت له اختصاصات التحكم والقوة، فإن تكتيك هاشم اتجه منحي أخر تمثل في اكتساب القلوب؛ فقام يهشم الثريد لقومه بيديه ـ لذلك لقب هاشماً ـ ومد بسخائه القاصي والداني، أما اسمه الحقيقي فكان عمرو، ويقول ابن كثير: «... هاشم واسمه عمرو، سمي هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته، وقيل للزبعري والد عبدالله:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتي الشتاء والصيف(١)».

وإذا كان هاشم هو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف؛ فلاريب أنه قد فعل ذلك في الوقت الذي بدأت فيه قريش تتحول من مجرد حارس وقابض للعشور، أو مجرد محطة ترانزيت، إلي بلدة تحتكر التجارة لنفسها، وتتاجر في بضائع الأمم بأموالها، (ولنلحظ أن القرآن الكريم يربط بعد ذلك بين هذا العامل الاقتصادي المتمثل في التجارة ـ وأثر ذلك في التقرش والاستقرار ـ والعامل الديني؛ في قوله: «لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.». وحول الفهم نفسه يكتب الدكتور (أحمد شلبي) قوله: «...فأصبحت مكة **جمهورية صغيرة تجارية...** وراجت تجارة مكة، فأخذت قريش توطد مركزها في البلد الحرام، فسنت.. رحلتي الشتاء والصيف؛ رحلة الشتاء إلي اليمن، ورحلة الصيف إلي الشام؛ فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة، واعتبرت العاصمة المعترف بها، وسمت منزلة سوق عكاظ؛ فأصبح ملتقي الخطباء وقطب الدائرة الفكرية.. وهاشم الجد الثاني للرسول كان سفير قريش لدي الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية؛ لتذهب تجارة قريش إلي الشام في أمان ومنعة»(٢).

لكن هاشما أعطي الوضع المتأزم أبعادا جديدة؛ عندما دعم قوي حزبه العسكرية برجال الحرب والدم والحلقة من بني النجار والخزرج في يثرب؛ فشد الوثاق بهم بأن **تزوج سلمي بنت عمرو من بني النجار من الخزرج**(٣)، ليكون ذلك لحزب عبد الدار وعبد شمس إعلانا صريحا عن قيام التحالف بين الحزب الهاشمي وأهل الحرب اليثاربة، وترك ولده شيبة المعروف بعبد المطلب ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله، وحيث كان كل التاريخ الديني يتواتر هناك في مقدسات اليهود.

وبموت هاشم تولي أخوه المطلب منصبي السقاية والرفادة والقيادة، «..والمطلب كان يقال له القمر لحسنه».ـ فيما يزعم ابن كثير(٤) ثم إنه اتبع أسلوب أخيه وسياسته في اجتذاب القلوب بالكرم والعطاء والبذل؛ فنال ألقاب المحبة والتكريم؛ حتي لقبوه لجوده بالفيض.

ولم يطل العمر بالمطلب سيدا؛ فقد رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة لابن أخيه؛ ذاك العبقري الفذ شيبة بن هاشم المعروف بعبد المطلب، الذي تربي صغيرا في كنف أخواله من أهل الحرب اليثاربة، ثم تزوج بنت جناب بن كليب الخزرجي شدا للأواصر ومدا للوثاق(٥) وكان واضحا من البداية فهمه الثاقب لأبعاد الأوضاع في مكة؛ فحرص علي استدامة حلف المطيبين بالزواج من بني زهرة، ومن المهم هنا أن نذكر أنه عند عودته من المدينة إلي مكة ليتبوأ مكان عمه المطلب؛ وجد عمه نوفلا قد وضع يده علي أملاكه خارجا عن حياده مستهينا بحداثة سنه، إلا أن عبد المطلب كتب من فوره إلي أخواله بني النجار في يثرب مستنصرا:

أبلغ بني النجار أني جئتهم ... أني منهم وابنهم والخميس
رأيتهم قوما إذا جئتهم ... هووا لقائي وأحبوا حسيس
فإنّ عمي نوفلا قد أبي ... إلا التي يغض عنها الخسيس(٦)

وما كاد إبراقه يصل الأخوال حتي قدحت حوافر خيول ثمانين محاربا يثربيا بالبرق؛ يحملون السيوف إلي مكة؛ مما دفع نوفلا إلي التراجع من فوره، ورد أملاك عبد المطلب إليه، لكنه أعلن خروجه علي حياده، وانحيازه لحزب عبد الدار وعبد شمس، ضد عبد المطلب وحزبه الهاشمي. وهذا ما تشرحه لنا السيرة الحلبية عن المطلب وابن أخيه في قولها: «..وكان شريفا مطاعا جوادا، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده، فلما كبر عبد المطلب فوض إليه أمر السقاية والرفادة، فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف، وغصبه أركاحا (أي أفنية ودورا) .. فكتب إلي أخواله بني النجار بالمدينة بما فعله معه عمه نوفل، فلما وقف خاله أبو سعد بن عدي بن النجار علي كتابه بكي، وسار من المدينة في ثمانين راكبا حتي قدم مكة فنزل بالأبطح؛ فتلقاه عبد المطلب وقال له: المنزل يا خال؛ فقال: لا والله حتي ألقي نوفلا؛ فقال: تركته في الحجر جالسا في مشايخ قريش؛ فأقبل أبو سعد حتي وقف عليهم، فقام نوفل قائما وقال: يا أبا سعد أنعم صباحا؛ فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحا، وسل سيفه، وقال: ورب هذه

البنية (الكعبة)؛ لئن لم ترد علي ابن أختي أركاحه، لأملأن منك هذا السيف، فقال: لقد رددتها عليه... **ولما جري ذلك حالف نوفل وبنوه بني أخيه عبد شمس علي بني هاشم»**(٧).

أما الطبري فيقول: «فلما رأي ذلك نوفل، حالف بني شمس كلها علي بني هاشم، قال محمد بن أبي بكر، فحدث بهذا الحديث موسي بن عيسي، فقال:

> يا ابن أبي بكر هذا شيء ترويه الأنصار تقرباً إلينا، إذ صير الله الدولة فينا؛ عبد المطلب كان أعز في قومه من أن يحتاج إلي أن تركب بنو النجار من المدينة إليه، قلت: أصلح الله الأمير؛ قد احتاج إلي نصرهم من كان خيرا من عبد المطلب، قال: وكان متكئا فجلس مغضبا، وقال: من خير من عبد المطلب؟ قلت: محمد رسول الله - (صلي الله عليه وسلم) - قال: صدقت، وعاد إلي مكانه وقال لبنيه: اكتبوا هذا الحديث عن ابن أبي بكر»(٨).

ويتضح لنا وعي عبد المطلب بن هاشم السياسي، وبعد نظره، وحسه القومي؛ في قيادته وفدا إلي اليمن برفقة ابن أخيه أمية (قبل النزاع المشار إليه)، وحلفائه: أبو زمعة؛ جد أمية بن عبد الله بن أبي الصلت - وسيكون لأمية هذا شأن - وخويلد الأسدي بن أسد بن عبد العزي (ومن الواجب ملاحظة امتداد ذلك التحالف في زواج حفيد عبد المطلب؛ النبي محمد صلي الله عليه وسلم، من السيدة خديجة بنت خويلد الأسدي - رضي الله عنها - في الوقت الذي استمر فيه علي التكتيك الهاشمي؛ بأن سار علي السنة الكريمة المعطاء بالجود؛ حتي لقبه الناس : شيبة الحمد(٩).

لكن الجديد في أمره، هو عمله علي وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه، فكان إدراكه النفاذ لسنة جده قصي الدينية والسياسية مساعدا علي تحديد الداء ووصف الدواء؛ والداء فرقة قبلية عشائرية، والأسباب تعدد الأرباب وتماثيل الشفعاء، ومن هنا انطلق **عبد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد؛ فهم يجمع القلوب عند إله واحد**، ويتميز بأنه يلغي التماثيل والأصنام وغيرها من الوساطات والشفاعات؛ لأنه لايقبل من أحد وساطة ولا شفاعة إلا العمل الصالح!!

وتمهيدا لما أزمع؛ أعلن في الناس: أنه بينما كان نائما في الحجر بالكعبة أتاه رئيٌ، وغتّه ثلاث مرات، **وأوحي إليه** الأمر بحفر البئر المعروفة باسم زمزم ، وتقول كتب الأخبار الإسلامية ، إنها كانت بئراً لجرهم بين صنمي إساف ونائلة دفنتها حين تركت مكة(١٠). نعم لقد تمثل تنافس بني العمومة من قبل في احتفار الآبار، جذباً للقبائل وقوافل التجارة، فقديما حفر عبد الدار (أم جراد)، ولما حفر عبد شمس (الطوي)؛ رد عليه هاشم بحفر (بدر)؛ فزاد أمية في الكرم وحفر (الحضر)؛ فرد عليه عبد المطلب بحفر (زمزم)(١١)، لكن زمزم ليست ككل الآبار؛ فهي البئر الوحيدة التي قيل فيها إنها حفرت بأمر غيبي - في حلم عبد المطلب - إضافة إلي ما شاع يتردد حول أمرها، فهي فعل إلهي لا إنساني، فجرها الله قديما تحت خد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)؛ ليشرب وأمه منها، وفي ذلك يقول ابن هشام في السيرة: «فضل زمزم علي سائر المياه: فعفت زمزم علي المياه التي كانت قبلها يسقي عليها الحجاج، وانصرف الناس إليها لمكانها في المسجد الحرام، ولفضلها عما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام..»(١٢).

ويقدم لنا ابن كثير نص هذا الأمر أو الوحي بحفر زمزم؛
وهو احفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم، هي تراث من
أبيك الأعظم، لاتنزف أبدا ولاتزم، تسقي الحجيج الأعظم،
مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، تكون
ميراثا وعقدا محكماً، ليست لبعض ما قد تعلم، وهي بين
الفرث والدم(١٣)

ثم يعقب بالقول: إن عبد المطلب «ساد في قريش سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم ورئاستهم؛ فكان جماع أمرهم عليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم بعدما كانت مطمومة من زمن جرهم، وهو أول من طلي الكعبة بذهب في أبوابها، من تينك الغزالتين اللتين من ذهب، وجدهما في زمزم مع تلك الأسياف القلعية»(١٤)، ثم يؤكد أن عبد المطلب **كان مؤسسا لملة واعتقاد**، فيروي عن ابن عباس وابن عمرو ومجاهد والشعبي وقتادة.. (عن ديانة أبي طالب بن عبد المطلب): «هو علي ملة الأشياخ.. هو علي ملة عبد المطلب»(١٥).

ويبدو أن أخطر شأن في هذه الملة وفي أمر عبد المطلب جميعه؛ هو إدراكه للنسب وخطورته بين الأعراب؛ بحسبانه العامل الجوهري في تفككهم السياسي؛ لاعتزاز كل قبيلة بنسبها القبلي ، والذي ظل مستبطنا في بطن التحول الجديد للبنية

الاجتماعية المكية ـ ومن هنا كان إعلانه أن العرب جميعا وقريش خصوصا، **يعودون بجذورهم إلي نسب واحد؛ فهم برغم تحزبهم وتفرقهم، أبناء لإسماعيل بن إبراهيم،** لذلك؛ ولأنه ينتمي إلي هذه السلالة الشريفة؛ فقد أعلن في الناس تبرؤه من أرجاس الجاهلية، وعودته إلي دين جده إبراهيم، ودين إبراهيم. هو الفطرة الحنيفية التي ترفض أي توسط بين العبد والرب، فإذ أهَلَّ رمضان صعد إلي غار حراء متحنفا، ثم عاد ينادي قومه أنه قد حرم علي نفسه الخمر(١٦)، وكل ضروب الفسق؛ حاثا علي مكارم الأخلاق؛ داعيا الناس لاتباعه؛ مؤمنا بالبعث والحساب والخلود؛ هاتفا: «والله إن وراء هذه الدار دارا يجزي فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء بسيئاته» !! ثم لايلبث أن **يبشر قومه بقرب قيام الوحدة السياسية،** فيشير إلي أبنائه وحفدته الذين أصبحوا له عزوة وشد أزر، ويقول: «إذا أحب الله إنشاء دولة، خلق لها أمثال هؤلاء»(١٧). أولئك الأبناء الذين كاد يقدم أحدهم ذبيحا (ابنه عبد الله أب النبي ـ عليه السلام) كما كاد يفعل جده البعيد إبراهيم (عليه السلام) مع ولده إسماعيل (عليه السلام).

وفي أمر عبد المطلب يقول المسعودي: «تنازع الناس في عبد المطلب، فمنهم من رأي أنه كان مؤمنا موحدا، وأنه لم يشرك بالله عز وجل.. وكان عبد المطلب يوصي بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم، **فعل من يراعي في المتعقب معادا وبعثا ونشورا»**(١٨)، هذا بينما يتحدث الأستاذ العقاد عن صراع الهاشميين وأبناء عمومتهم علي الرئاسة، وعن عبد المطلب بوجه خاص فيقول: «وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية علي هذا الشرف، فأسفرت المنافسة بينهم عن فارق ملحوظ في الطباع؛ ملحوظ الأثر في خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلي ما بعد الإسلام بعدة قرون... لقد كان بنو هاشم أسرة النبي (صلي الله عليه وسلم) أصحاب رئاسة وكانت لهم أخلاق رئاسة... وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين؛ مؤمنا بمحارم دينه... كان في الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التي فطرت علي الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار، كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولاتصدر عن غيره، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال... وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين، لايغفلهما أحد يفقه معني تمحيص الخبر، وأولهما في هذا السياق: لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره؟ وثانيهما: لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية؟ وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمر عبد المطلب قد استقرت علي صفة لاتفترق فيها روايتان، وهي **صدق التدين والإيمان بمحارم الدين»**(١٩).

هذا بينما يقول الحافظ السيوطي: «.. إن أجداده (عليهم السلام) من آدم إلي مرة بن كعب مصرح بإيمانهم..» وقد ذكر في عبد المطلب «إنه كان علي ملة إبراهيم (عليه السلام) أي لم يعبد الأصنام..»(٢٠)، كما جاء عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): «يبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك وأبهة الأشراف...».. وكان أبو طالب ممن **حرم الخمر علي نفسه** في الجاهلية كأبيه عبد المطلب(٢١).

وليس أدل علي مثل هذه التوجهات بشأن عبد المطلب مما زعمه الإخباريون من اعتقاد العرب في شأنه، كصاحب ملة، وكرجل له نوع ما من العلاقة بالسماء، وفي أنه ثمة رابط بين ذلك **وعلمه اليقيني المسبق بأن حفيده؛ محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) هو نبي الأمة وموحدها المنتظر.** فتشير كتب التراث إلي أن قريشا استقت به من السماء بعد جدب أشرفت معه علي الهلاك؛ فصعد بهم ومعه حفيده إلي جبل أبي قبيس ينادي ربه :« اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بهم ما تري، وتتابعت علينا السنون، فذهبت بالظلف والخف والحافر؛ أي الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، فأشفت علي الأنفس، أي أشرفت علي ذهابها، فأذهبن عنا الجدب وائتنا بالحيا والخصب، فما برحوا حتي سالت الأودية» . أما الاعتقاد الثابت لدي هؤلاء فقد كان هو: «له فخر يكظم عليه ـ أي يسكت عنه ولايظهره ـ وسنن يهتدي بها ـ أي يرشد إليها» ، وفي الاستسقاء به قالت رقيقة بنت أبي صيفي شعرها:

بشيبة الحمد أسقي الله بلدتنا   وقد عدمنا الحيا واجلّوذ المطر(٢٢).

ولا بأس هنا من إيراد نص يحكي عن علاقة عبد المطلب وسننه بالسماء، واستجابة السماء له؛ يقول:

> «ولما سقوا لم يصل المطر إلي بلاد قيس ومضر، فاجتمع عظماؤهم (وذهبوا إليه يقولون): قد أصابتنا سنون مجدبات، وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك، فاشفع لنا عند من شفعك، وأجري الغمام لك، فقال عبد المطلب: سمعا وطاعة... ثم قال: اللهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، رب الأرباب، وملين الصعاب، هذه قيس ومضر، من خير البشر، قد شعثت رؤوسها، وحديت ظهورها،

تشكو إليك شدة الهزال، وذهاب الناس والأموال، اللهم فافتح لهم سحابا خوارة، وسماء خرارة، لتضحك أرضهم، ويزول ضرهم. فما استتم كلامه حتي نشأت سحابة سوداء دكناء، لها دوي وقصدت نحو عبد المطلب، ثم قصدت نحو بلادهم؛ فقال عبد المطلب: يا معشر قيس ومضر انصرفوا فقد سُقيتم، فرجعوا وقد سقوا»(٢٣).

أما ما جاء عن فخر له يكظم عليه ولا يظهره؛ فقد وضح في الحديث المتواتر في كتب السير عن اللقاء السري الذي تم بينه وبين سيف بن ذي يزن؛ عندما قاد وفد قريش لتهنئته باستقلال بلاده عن الحبشة. وبهذا الشأن يورد ابن عبد ربه مازعم أنه دار في هذا اللقاء، في حديث مسجوع الفواصل؛ فقال سيف لعبدالمطلب:

«إني مفوض إليك من سر علمي أمرا غيرك كان لم أبح له به، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه، فليكن مصونا حتي يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، فإني أجد في العلم المخزون، والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خيرا عظيما، وخطرا جسيما، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوْفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، وبنفسك خاصة... إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلي يوم القيامة... هذا حينه الذي يولد فيه، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وقد وجدناه مرارا، والله باعثه جهارا، وجاعل له منا أنصارا (المقصود هنا أهل يثرب فهم من أصل يمني)، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويفتتح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد النيران، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبطله... والبيت ذي الطنب، والعلامات والنصب، إنك ياعبد المطلب، لجده من غير كذب، فخر عبد المطلب ساجداً... قال ابن ذي يزن: .. اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإني لست آمنا أن تدخلهم النفاسة، في أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم».

ويردف ابن عبد ربه القول: إن ابن ذي يزن «أمر لكل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلتين من حلل اليمن، وكرش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش لايغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك؛ فإنه إلي نفاد، **ولكن يغبطني مما يبقي لي ذكره وفخره لعقبي؛ فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين»**(٢٤).

وعن اليقين بعلم عبد المطلب بأمر حفيده؛ يتحدث كتبة التراث مسلمين بالأمر، ثم يقصون أقاصيص تعبر عن هذا التسليم وذاك اليقين؛ فيذكرون عن ولده العباس (رضي الله عنه) قوله: «قال عبد المطلب: قدمت من اليمن في رحلة الشتاء، فنزلنا علي حبر من اليهود يقرأ الزبور، فقال: من الرجل؟ قلت: من قريش، قال: من أيهم؟ قلت: من بني هاشم، قال: أتأذن لي أن أنظر إلي بعضك، قلت نعم مالم يكن عورة، قال: ففتح إحدي منخري فنظر فيها ثم نظر في الأخري، فقال: **أنا أشهد أن في إحدي يديك ملكا وفي الأخري نبوة**، وإنما نجد ذلك (أي كلا الملك والنبوة) في بني زهرة، فكيف ذاك؟ قلت لا أدري... فقال: إذا تزوجت فتزوج منهم. فلما رجع عبد المطلب إلي مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف! فولدت له حمزة وصفية، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب أخي وهيب فولدت له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فكانت قريش تقول، فلح عبد الله علي أبيه، أي فاز وظفر.. ثم رأيت في أسد الغابة... أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد.. وجاز أن يكون الملك والنبوة اللذان تكلم عنهما الحبر، **هما نبوته وملكه (صلي الله عليه وسلم) لأنه أعطيهما»**(٢٥).

وعليه فإن هذا الخبر - سواء حل محل الصدق أو عدمه - يشير إلي علم عبدالمطلب بل سعيه لتحقيقه وإنجاحه، وثمة شاهد آخر يتفق عليه الرواة، ويقول عنه البيهقي: «كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فراش في ظل الكعبة؛ فكان لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له؛ وكان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) - يأتي حتي يجلس عليه؛ فيذهب أعمامه يؤخرونه؛ فيقول جده عبد المطلب: دعوا ابني، فيمسح علي ظهره ويقول: إن لبني هذا لشأناً»(٢٦)، أو بتعبير السيرة الحلبية «.. دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا»، أو قولها «... دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس في نفسه بشرف، أي يتيقن من نفسه شرفا، وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربي قبله ولابعده»(٢٧). أو بتعبير ابن كثير «.. دعوا ابني؛ فوالله إن له لشأنا.. دعوا ابنى إنه **يؤسس ملكا**»(٢٨). ثم كان يشتد وجد الجد بالحفيد؛ «.. فقال

عبد المطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم»، أو قوله لأم أيمن حاضنته: «يا بركة.. لاتغفلي عن ابني؛ فإن أهل الكتاب ـ أي ومنهم سيف بن ذي يزن ـ يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»(٢٩)، ويروي البيهقي: «فكان عبد المطلب فيما يزعمون يوصي أبا طالب برسول الله (صلي الله عليه وسلم)، وذلك أن عبد الله وأبا طالب لأم، فقال عبد المطلب فيما يزعمون؛ فيما يوصي به ـ واسم أبي طالب عبد مناف:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بموحد بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأم له في الوجد
إن الفتي سيد أهل نجد يعلو علي ذي البدن الأشد(٣٠)

وبما أن لكل مجتهد نصيبا؛ فقد أتت مساعي عبد المطلب وجهوده التي لم تكل بثمارها، واتبعه كثيرون علي ملته الإبراهيمية وعقيدته الحنفية، التي لم يستنكف المؤرخون والباحثون من نعتها بـ «دين عبد المطلب»(٣١)، ومن هؤلاء التابعين (وفيهم السابقون الممهدون): قس بن ساعدة الإيادي، وأمية بن أبي الصلت، وأرباب ابن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن جندب الجهني، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وعامر بن الظرب العدواني، وعلاف بن شهاب التميمي، والمتلمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سلمي، وخالد ابن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وكعب بن لؤي بن غالب، وعبد لطابخة بن ثعلب، وزيد الفوارس بن حصين، وزيد بن عمرو بن نفيل(٣٢)، وأكثم ابن صيفي، وأبو قيس بن الأسلت، وحنظلة بن صفوان، وغيرهم كثير، وبانتشار الأيديولوجيا الحنفية بدأ أتباعها يتنافسون في التقوي والتسامي الخلقي؛ علَّ أحدهم يكون نبي الأمة وموحد كلمتها، حتي شكلوا «تيارا قويا، خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة»(٣٣).

هوامش

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٦.

٢- أحمد شلبي: السيرة، ج ١، ص ١٤٦ و ١٨٣.

٣- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ١٣٠.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٧.

٥- ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ١٣١.

٦- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

٧ - الحلبي: السيرة، ج ١ ، ص ٢٢ و ٢٣.

٨- الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٩.

٩- ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ج ١، ص ٢٩.

١٠- ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٠١.

١١- نفسه: ص ١٣٦ : ١٣٩.

١٢- نفسه: ص ١٣٩.

١٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٨.

١٤- نفسه: ص ٢٣٦.

١٥- نفسه: ج ٣، ص ١٢٢.

١٦- أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص ٢٣٧.

١٧- أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ١٢٤٤، ١٢٤٥.

١٨- المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ١٣١، ١٣٢.

١٩- العقاد: طوالع البعثة، ص ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٤ و ١٤٨.

٢٠- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٧٠.

٢١- نفسه: ج ١، ص ١٨٤.

٢٢- نفسه: ج ١، ص ١٨١، ١٨٢.

٢٣- نفسه: ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٣.

٢٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٢٩١ : ٢٩٣. وانظر أيضا المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٨٣ و ٨٤.

٢٥- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ٧٠ و ٧٢.

٢٦ - أبو بكر البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة ط ١، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٢.

٢٧- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ١٧٧.

٢٨- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٦١.

٢٩- الحلبي: السيرة، ج ١، ص ١٨٠.

٣٠ - البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٢٢.

٣١- د. أحمد جمال العمري: الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨١، ص ١٠٢.

٣٢- نفسه: ص ٨٦.

٣٣- ثريا منقوش: التوحيديمان، التوحيد في تطوره التاريخي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٥٩.

جذور
الأيديولوجيا
الحنفية

يبدو أن التوحيد بمعناه الحنفي يعود إلي زمن بعيد، فحوالي القرن الأول قبل الميلاد كان بعض أهل اليمن يعبدون إلها باسم (ذوي سموي) أو إله السماء، كإله واحد، وقد ذكرت نقوش المسند اليمنية عبادة إله واحد يدعي (رحمن)، ويري الباحثون أنهما كانا مسميين لواحد، وتؤكد (ثريا منقوش): «أن عبّاد هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف»(١). ويذهب (الدكتور جواد علي) إلي افتراض أن تكون عقيدة حنفاء مكة التي نادي بها عبد المطلب بن هاشم، بعد سبعة قرون؛ امتدادا لحنيفية رحمن اليمن؛ رب السماء ذوي سموي، ويلمح إلي ذلك في قوله عن أحناف مكة: «لانستطيع أن نقول إنهم نصاري أو يهود، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلي عبادة الإله رب السماء ذوي سموي، أو عبادة الرحمن في اليمن»(٢).

ويذكر الفخر الرازي أن عقيدة أحناف اليمن، كانت أركانا أربعة هي: حج البيت، واتباع الحق، وملة إبراهيم، والإخلاص لله وحده. ثم يضيف قوله: إن عدم معرفة هؤلاء لتاريخ نشوء عقيدتهم؛ فقد نسبوها إلي إبراهيم النبي العبري!! (لنا في جذور هذا الأمر بحث خاص، ألقينا فيه الضوء علي مساحات مظلمة في تاريخ هذه العقيدة، بعنوان: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول).

ويذهب الألوسي إلي أن الصابئة هم قوم النبي إبراهيم (عليه السلام) وأهل دعوته(٣)؛ مما دفع بعض العلماء إلي حسبان الحنفاء صنفا من الصابئة، وبالتحديد ـ الصنف المؤمن أو من بقي علي الإيمان منهم(٤)، وكان منهم بالجزيرة العربية نفر غير قليل، **وكانوا يقيمون الصلاة عدة مرات في اليوم كفرض إجباري للإيمان، يقومون فيها ويركعون، ويتوضأون قبلها، ويغتسلون من الجنابة، ولهم قواعد في نواقض الوضوء**(٥). (ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أطلق أهل مكة علي من يتبع دعوة الإسلام ويشاهدونه يؤدى هذا الشكل من الصلوات: أنه قد صبأ) !!

ولا بأس هنا من التعريف السريع بأهم حنفاء الجزيرة، أو من شاء حظهم أن يذكرهم التاريخ ولو بكلمات، ومنهم ـ كما أشرنا ـ قس بن ساعدة الإيادي ، الذي يكاد يجمع المؤرخون علي موته قبل البعثة بقليل، وقد ورد أن النبي **(صلي الله عليه وسلم) كان يسمع إليه في سوق عكاظ.** ونقل الألوسي بعض ما نسب إلي قس فقال: «ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذي قال فيه النبي (صلي الله عليه وسلم) لجارود: يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ علي جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني حفظته، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإني أحفظه، كنت حاضرا ذلك اليوم، فقال في خطبته: أيها الناس؛ اسمعوا وعوا؛ فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من

عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، جهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قس قسما حتما، لئن كان في الأرض رضي ليكونن بعده سخطا، وإن لله دينا هو أحب إليه من دينكم»(٦)، ثم يعلن توحيده الخالص النقي؛ مناديا «كلا، بل **هو الله المعبود الواحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدي، وإليه المآب غدا**(٧)» ثم يرسل شعره قائلا:

في الذاهبين الأولين ... في الشعوب لنا بصائر

لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها ... تسعي الأصاغر والأكابر

لا يرجعن قومي إليَّ ... ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر(٨)

ويقول أيضا:

يا ناعي الموت والأموات في جدث ... عليهم من بقايا برعم خرق

دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا

حتي يعودوا لحال غير حالهم ... خلقا جديدا كما من قبله خلقوا

فيهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها المبهج الخلق

حتي قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) «والذي بعثني بالحق، **لقد آمن قس بالبعث**»(٩).

ومن الحنفاء (سويد بن عامر المصطلقي). ذكرت المصادر أنه كان علي دين الحنيفية وملة إبراهيم، وقد جاء في شعره ذكر المنايا وحتمها، وأن الخير والشر مكتوبان علي النواصي، وأنه ليس للمرء يد فيما يصيبه من القدر، فكل شيء محتوم مقدور. قال مسلم الخزاعي المصطلقي: «شهدت رسول الله «صلي الله عليه وسلم» وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقي:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم ... حتي تلاقي ما يمني لك الماني

فالخير والشر مقرونان في قرن ... بكل ذلك يأتيك الجديدان

فكل ذي صاحب يوما يفارقه   وكل زاد وإن أبقيته فانٍ

فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): لو أدركته لأسلم»[10].

ومنهم أيضا - قبل عبد المطلب -(اوكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)، الذي بني صرحا بأسفل مكة جعل فيه أمة يقال لها حزورة، وبها سميت حزورة مكة، جعل فيه سلما يرقاه، زاعما أن الله يناجيه فيه، وكان يتكلم بالخير، وزعم العرب أنه صديق من الصديقين[11]، وهو بهذا المعني رجل متأله مدعي الوحي متنبيء، وذكروا عنه كلمات مسجوعة مثل: «إن ربكم ليجزين بالخير ثوابا، وبالشر عقابا، وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جرهم وزيلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد»، أو مثل «من رشد فاتبعوه، ومن غوي فارفضوه، وكل شاة برجلها معلقة»[12].

ومنهم أيضا (أبو قيس، صرمة بن أبي أنيس)، وهو من بني النجار أهل يثرب؛ أنسباء البيت الهاشمي، وتقول الأخبار إنه فارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر، ودخل بيتا له اتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا يدخله جنب، وقال أعبد رب إبراهيم، وكان قوالا بالحق، معظما لله، وقال ابن حجر: إنه لما قدم النبي (صلي الله عليه وسلم) إلي يثرب، أسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ عجوز، وكان ابن عباس يختلف إليه ويأخذ عنه الشعر[13]، ومن هذا الشعر قوله:

فو الله ما يدري الفتي كيف يتقي   إذا هو لم يجعل له الله واقيا

ولاتحفل النخل المعيمة ربها   إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

وقوله:

يابني الأيام لا تأمنوها واحذروا   مكرها ومر الليالي

واعلموا أن مرها لنفاد الخلق   ما كان من جديد وبالي

وقوله:

سبحوا الله شرق كل صباح   طلعت شمسه وكل هلال

عالم السر والبيان لدينا   ليس ما قال ربنا بضلال(١٤)

ومنهم أيضا ورقة بن نوفل الذي قال عنه الألوسي أنه ممن وحد الله، وترك الأوثان وسائر أنواع الشرك، واجتهد في طلب الحنيفية دين إبراهيم، ثم تنصر، لكنه لم

يتبع النصاري في التبديل، وظل موحدا(١٥) وقد سأل رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عن ورقة فقالت له خديجة (رضي الله عنها): إنه كان صدقك وإنه مات قبل أن تظهر؛ فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): رأيته في المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك(١٦).

وقس هو الذي كان ينادي الناس ناصحا:

لاتعبدون إلها غير خالقكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به ... وقبل قد سبح الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لاينبغي أن يناوي ملكه أحد
لاشيء مما نري تبقي بشاشته ... يبقي الإله ويودي المال والولد

وهو الذي قال في (زيد بن عمرو بن نفيل) رفيقه علي درب الحنيفية بعد موته:

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارا إلي النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ولو ... كان تحت الأرض سبعين واديا(١٧)

ومنهم (عامر بن الظرب العدواني)، وكان من حكماء العرب وخطبائهم، وكانت له نظرات وآراء في العقيدة؛ تتضح في قوله في وصية طويلة منها: «إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء.. إني أري أموراً شتي وحتي (قيل له: وما حتي؟) قال: حتي يرجع الميت حيا، ويعود اللاشيء شيا..»(١٨)، وقالوا عنه: إن إيمانه بملة إبراهيم، دفعه إلي تحريم الخمر علي نفسه(١٩)، وفي ذلك يقول:

أن أشرب الخمر للذتها ... وأن أدعها فإني ماقت قال
لولا اللذاذة والفتيان لم أرها ... ولا رأتني إلا من مدي الغال
سئالة للفتي ما ليس يملكه ... ذهابة بعقول القوم والمال

مــورثة الـقــوم أضــغــانـا بلا إحن   مــزرية بــالـفـتي ذي الـنجــدة الـعــال
أقــسـمت بــالـله أسـقـيـهـا وأشـربـهـا   حتي يفرق ترب القبر أوصالي (٢٠)

ومنهم عــلاف بن شــهــاب الـتـمــيمي الـذي آمن بوحـدانـيـة الـله وبالـبـعـث والـنشــور والـحـســاب والـثواب والـعقـاب، وهـو الـقائل:

ولـقـد شــهـدت الـخـصـم يوم رفـاعـة   فـــأخـذت مـــــنه خطـــة المغـتال
وعـلـمت أن اللـــــه جــاز عـــبـــده   يوم الحساب بأحسن الأعمال(٢١)

ومنهم (المتلـمس بن أمـيـة الكناني)الذي كـان يـخطب في فـنـاء الـكـعـبـة مناديا بنبـذ الـفرقـة القـبلـيـة عن سـبـيل نبذ الأوثان، والاتجـاه إلي رب كـعـبـة مكة، وكـان يقـول لـهـم: «إنكم تفـردتم بآلـهـة شـتـي، وإني لأعـلـم مـا الـلـه راض به، **وإن الله رب هـذه الآلـهـة، وإنه ليحب أن يعبد وحده»**(٢٢).

ومن الـحـنفـاء أيضـا من حـاز بعض الشـهـرة، مثل (زهـيـر بـن أبي سـلمي)، وذكر أنه كـان يتأله ويؤمن بالبعث والحساب، ويروي أنه كـان يمر بـالـعـضـاة قد أورقت بـعـد يبس فـيـقـول: «لـولا أن تسـبـني الـعـرب، لآمنت أن الـذي أحـيـاك بـعـد يبس **سـيـحـيي الـعظام وهـي رميم»**، وقـد سلـكـه ابن حـبـيب ضـمن من حـرمـوا علي أنفـسـهـم الـخـمـر والـسـكر والأزلام(٢٣)، وهـو الـقائل مقسـمـا بـالـكعبة:

أقــسـمت بالـبـيـت الـذي طاف حـولـه   رجــال بنوه مــن قــريش وجــرهـم
يمـينا لـنـعـــم الـســيـدان وجـدتمـا   علي كل حال من سحيل ومبرم(٢٤)

وهـو الـقائل:

ومـهـمـا تكـن عنـد امـريء من خليقة   ولو خـالـهـا تـخـفي عـلي الـناس تعـلـم
ومــن هـاب أسـبـاب المنيـة يلـقـهـا   ولو رام أسباب الـسـمـاء بسلم(٢٥)

ثم هـو يـحـدد موقـفه واضـحـا من لـعقة الـدم في حـلف الأحـلاف المناويء لـلمطيبين في قوله:

ألا أبـلـغ الأحـــلاف عــني رســـالـة   وذبيان، هـــل أقـسـمـتم كل مقـسـم
فـلا تـكـتــمـن الـلـه مـا في نـفـوسـكم   ليـخـفي، ومـهـمـا يكتم الله يعلم(٢٦)

ثم يقول مؤمـنـا:

ألا ليت شعري هل يري الناس ما أري من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الله حق فزادني إلي الحق تقوي الله ما كان باديا(٢٧)

إن الفكر السليم ليعزو انتشار الحنيفية في الجزيرة والحجاز؛ إلي تمهيد هؤلاء وتوطئتهم، حتي تحولت إلي تيار قوي قبل الإسلام، وإن أهم رجالات الحنيفية وأساتذتها ـ وربما كان أولهم من حيث الأهمية والأثر ـ هو (عبد المطلب بن هاشم)، إضافة إلي اثنين من تلامذة الحنيفية الكبار هما: (زيد بن عمرو بن نفيل بن حبيب)، ذاك الذي استطاع جده إقناع الفيل محمود بالعودة إلي اليمن راشدا، وكان حليفا لعبد المطلب، والثاني (أمية بن عبد الله بن أبي الصلت؛) وكان جده حليفا بدوره لعبد المطلب، ورفيقه في رحلته لتهنئة ابن ذي يزن باستقلال اليمن.

ويؤكد الدكتور جواد علي أن أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن غيرهم، هي: **الاختتان، وحج مكة، والاغتسال من الجنابة، واعتزال الأوثان، والإيمان بإله واحد بيده الخير والشر، وأن كل ما في الكون محتوم مكتوب**(٢٨)، وفي ملل الشهرستاني نجد أن الحنفاء كانت تقول: «إننا نحتاج في المعرفة والطاعة إلي متوسط من جنس البشر؛ تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقي إلي نوع الإنسان بطرف البشرية»(٢٩).

إذن هي النبوة؟! ولابد للأحناف من نبي!!

وهنا يقول لنا الدكتور أحمد الشريف: «والدليل علي أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلي نظام جديد؛ أنهم كانوا ـ حسب تفكيرهم ـ يتحدثون عن علامات ونذر تنبيء عن قرب ظهور نبي منهم، وقد روي القدماء معجزات ونذراً قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام؛ إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات ـ إن صحت ـ كانت دليلا علي أن الجاهليين تطلعوا إلي الإصلاح، وإلي ظهور مصلح من بينهم، **وكان الإصلاح قديما لا يأتي إلا علي أيدي الحكماء والأنبياء**، وهذا التطلع الطبيعي في كل جماعة إحساس ضروري يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها.. وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد؛ لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة؛ من الناحية اللغوية، ومن ناحية الجنس.. وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب في أحد الدينين، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية.. لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها **رمزا لقوميتهم.. ديانة تعبر عن روح العروبة** وتكون عنوانا لها، لذلك؛ بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذي كانوا يعدونه أباً لهم.. وقد ظهرت حركة التحنف قبل

الإسلام مباشرة، وكانت رمزا إلي أن الروح العربي كان يتلمس يومئذ دينا آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء.. كان دليلا على **نضوج ديني فلسفي، استعد له العرب في القرون المتطاولة السابقة..** وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذلة وعار.. في هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ ظهرت النهضة العربية؛ وكانت دينية؛ والدين كان عاملا من عوامل التطوير والتقدم في العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية إلا بانتشار **العلوم، ووجود العوامل التي تنافسه في القيام بهذا الدور في العصر الحديث»**(٣٠).

المهم؛ أنه عندما وصل الحنفاء إلي النتيجة المحتومة، بدأت مباراة تتسم بسمو الروح الرياضية ورقيها؛ فأخذوا يتنافسون في الترفع عن صغائر الأفعال، وهذه الأفعال التي تعففوا عنها هي التي أصبحت فيما بعد أفعالا شريرة، ويجب تجنبها في نظر الناس، أما عندما جاء الإسلام فقد أوجب تحريمها، ومن هؤلاء الرواد الذين لاينبغي أن يتخطاهم البحث المحايد، من يصح الوقوف معهم رويدا.

الوقفة الأولي: مع (زيد بن عمرو بن نفيل): الذي تعود أرومته إلي قصي بن كلاب، وأمه هي أمية بنت عبد المطلب!! ويعد ثاني الرواد الحنفيين أثرا وأكثرهم خطرا بعد عبد المطلب بن هاشم، وعنه يقول ابن كثير: «إنه اعتزل الأوثان، وفارق الأديان؛ من اليهود والنصاري والملل كلها، إلا دين الحنيفية، دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه.. وذكر شأنه للنبي (صلي الله عليه وسلم) فقال: **هو أمة وحده يوم القيامة.. يبعث يوم القيامة أمة وحده..** وكان يحيي الموءودة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لاتقتلها، أنا أكفيك مئونتها فيأخذها.. وكان يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.. فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يحشر ذاك أمة وحده، بيني وبين عيسي ابن مريم - إسناده جيد - وأتي عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقال غفر الله له ورحمه، فإنه مات علي دين إبراهيم.. مات زيد بمكة، ودفن بأصل حراء.. قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين»(٣١).

ويقول البيهقي في دلائل النبوة: إنه التقي برجل من أهل الكتاب فقال له عليك بالدين الحنيف؛ «قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولانصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، ومن ثم عاد مؤمنا بدين إبراهيم وحنيفيته الإسلامية»(٣٢). ولكلام البيهقي

هنا مصداقية خاصة يدلل عليها شعر زيد ذاته الذي أفصح فيه عن «إعلان حنيفيته تحت اسم الإسلام، وعندما تنبأ المصطفي محمد (صلي الله عليه وسلم)، كان يترحم علي زيد ويقول: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا»[٣٣]. وعرف عنه الجاهليون دأبه الذي لا يكل ولا يمل؛ متنقلا دوما، يدعو لنبذ الأسلاف المتفرقة في أرباب شفيعة، والعودة إلي أب واحد يجمع العرب هو إسماعيل بن إبراهيم، وإلي رب واحد هو رب إبراهيم؛ مباشرة ومن دون وسيط، نبذا للفرقة القبلية، وتهيئة للوحدة، ثم لا يأتي شهر رمضان إلا ويصعد إلي غار حراء متحنفا متحنثا معتكفا يتأمل ويتعبد[٣٤].

وفي (البداية والنهاية)، يطالعنا زيد بشعره قائلا:

أسلمت؟!

أسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما رآها استوت ... علي الماء، أرسي عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هي سيقت إلي بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا[٣٥]

(وليلحظ قارئنا أننا نستند هنا في أمر هذا الشعر إلي مصادره الأصلية، إضافة إلي العودة إلي حل مسألة الانتحال فيه، والأخذ بما انتهي الباحثون لتأكيده غير منحول، فهي مهمة لها رجالها المتخصصون، وإليهم مرجعنا في الأمر، وينسحب ذلك علي كل ما أوردناه من أشعار الحنفاء)[٣٦].

وفي (السيرة النبوية) لابن هشام؛ نجد زيدا إذا دخل الكعبة قال: «اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكنني لا أعلمه، ثم يسجد علي الأرض»[٣٧]. ويؤكد (ابن هشام) أنه حرم علي نفسه أمورا ـ نقلها الناس عنه من بعد كتشريعات؛ لانبهارهم بشدة ورعه وعلمه وتقواه ـ مثل: **تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله من ذبائح تذبح علي النصب**[٣٨]. نعم؛ لقد أصبحت هذه تشريعات لمجرد امتناع زيد عنها، وربما كان امتناعه عن بعضها لا لعيب فيها، وإنما لأنه كان لا يسيغها، ومع ذلك كان لإعجاب الناس به دور كبير في تحولها إلي قوانين متعالية.

وتروي لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبي محمد (صلي الله عليه وسلم)، وأنه

التقاء؛ عن عبد الله بن عمر: أن النبي (صلي الله عليه وسلم) لقي زيدا بأسفل بلدح، فدعاه إلي تناول طعام مما يذبح للأرباب، فقال زيد للنبي: «إني لست آكل ما تذبحون علي أنصابكم»؟! ويعلل ابن هشام أكل النبي قبل بعثه نبيا، لأضحيات أو قرابين الأصنام بقوله: «إن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) كان يأكل مما ذبح علي النصب، فإنما فعل أمرا مباحا، وإن كان لا يأكل فلا إشكال» !!(٣٩) ويورد لزيد شعره القائل في فراق الوثنية:

أربا واحدا أم ألف رب ... دين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزي جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزي أدين ولا ابنتيها ... ولاصنمي بن عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوي الله ربكم احفظوها ... متي تحفظوها لاتبوروا
تري الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية السعير
وخزي في الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور(٤٠)

وقال حجير بن أبي إهاب: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، وأنا عند صنم بوانة - بعدما رجع من الشام - وهو يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلي ركعة وسجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرا ولا أصلي إلا إلي هذا البيت حتي أموت، وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لاشريك لك، ولا ند لك، ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول: لبيك متعبدا لك مرقوقا»(٤١).

وقالت أسماء بنت أبي بكر: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما؛ مسندا ظهره إلي الكعبة، يقول: يامعشر قريش، ما منكم أحد علي دين إبراهيم غيري، وكان إذا خلص إلي البيت استقبله ثم قال: لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال، ثم قال:

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفي لك عان راغم ... مهما تجشمني فإني جاشم(٤٢)

ويقول أيضا:

إلي الله أهدي مدحي وثنائيا ... وقولا رصينا لايني الدهر باقيا

إلي الملك الأعلي الذي ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا

رضيت بك اللهم ربا فلن أري أدين إلها غير الله ثانيا(٤٣)

الوقفة الثانية: مع(أمية بن عبد الله بن أبي الصلت) : الذي تصله أمه رقية بنت عبدشمس بن عبد مناف ببيت عبد مناف بن قصي(٤٤) وهو صاحب القول المأثور:

كل دين يوم القيامة ـ إلا دين الحنيفية ـ زور!!

وكان يحاور أبا سفيان ويقول له: «.. والله يا أبا سفيان، لنبعثن ثم لنحاسبن، وليدخل فريق الجنة، وفريق النار»(٤٥)، وحول عقيدته في البعث والحساب يقول شعرا:

باتت همومي تسري طوارقها أكف عيني والدمع سابقها

مما أتاني من اليقين ولم أوت برأة يقصي ناطقها

أم من تلظي عليه واقدة النار محيط بهم سرادقها

أم أسكن الجنة التي وعد الأبرار مصفوفة نمارقها

لايستوي المنزلان ولا الأعمال لاتستوي طرائقها

هما فريقان: فرقة تدخل الجنة حفت بهم حدائقها

وفرقة منهم أدخلت النار فساءتهم مرافقها(٤٦)

ويقول جواد علي: إن أمية حرم علي نفسه الخمر، وتجنب الأصنام، وصام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وكان أول من أشاع بين القرشيين افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بعبارة: باسمك اللهم (استعملها النبي محمد «صلي الله عليه وسلم» ثم تركها واستعمل بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد روي الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان، وتوسمهم فيه أمارات النبوة، ***وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة***(٤٧). وأمية هو القائل في رب الحنيفية الخلاق:

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال

بناها وابتني سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا حبال

وســـــواهـا وزينـهـــــا بـنــور مــن الشـمس المضـيئـة والـهـلال

ومن شـــهب تــلألأت في دجـــاهـا مــراميـهـا أشـــــد من النصــال

وشــــق الأرض فـأنجبت عيـونـا وأنـهـــارا مـــن الـعـذب الـزلال

وبـارك فـــي نواحيهــا وزكـــي بهـا مـا كـان مــن حـرث ومـال

يعتبر أمية أحسن الحنفاء حظا في بقاء الذكر، فقد بقي كثير من شعره وحفظ قسط لا بأس به من أخباره، وسبب ذلك عند (جواد علي) بقاؤه إلي ما بعد البعثة، واتصاله بتاريخ النبوة والإسلام اتصالا مباشرا، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام، برغم أنه حضر البعثة ولم يسلم، ولم يرض بالدخول في الإسلام، لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة، ويكون مختار الأمة وموحدها، ولذلك، **برز كنموذج للاستقامة والإيمان والتطهر والزهد والتعبد**، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف **كافرا بالأوثان وبالإسلام**(٤٨)!! ويذكر الإخباريون المسلمون أنه لما سمع بخبر البعثة ذهب ليسلم، لكن بعض أهل مكة علموا بمسيره، فأرادوا رده عن غايته، فالتقوه عند القليب حيث قَبَّرَ المسلمون سادات قريش في بدر الكبري، ولعلم القرشيين بحكمة أمية ـ التي دعته من قبل إلي تقدير السادات؛ من حكماء مكة وأشرافها ـ فقد قالوا له: هل تدري ما في هذا القليب. قال: لا؛ فقالوا له: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان، فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه وبكي قائلا: **لو كان نبيا ما قتل ذوي قرابته**، وعاد يرسل نواحه شعرا يرثي قتلي بدر من أهل مكة، في قصيدته الحائية التي يقول في بعضها:

ألا بـكـيــت عـلـي الـكـرام بـنـي الـكــرام أولـــي المـمــــــادح

كـــبكا الـحـــمـــام عـلي فــروع الأيــك في الـغـــصـــن الصـــوادح

إن قـــــد تـغـــيـــر بـطن مكـة فـهـــي مـوحـشـــة الأبـــاطح

مـــن كــل بـطــريـق لـبطـــر يـــق نـقـــي الـــلـون واضـــح

ومـــن الـســـراطمــة الجـلا جــمــــة المـلاوثـة المنـاجـــح

الـقـــائـلـين الـفـــاعـلـين الآمـــرين بـكــــل صـــالـــح

المـطعـمين الـشـــحـم فـــوق الخـبــز شـحـمـا كـالأنـافـــح

خـــذلـتـهم فـئـــة وهـــم يحـمون عـــورات الـفـضـائـح

ولـقـــد عـنـــاني صـــوتـهـم من بين مـسـتـشق وصـابـح(٤٩)

وقال الإمام أحمد: «حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول: قال الشريد: كنت ردفا لرسول الله (أي راكبا معه علي بعير واحدة) فقال لي: أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم؛ قال: فأنشدني بيتا، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتا: إيه، حتي أنشدته مئة بيت»(٥٠). ومن هذا الشعر ما يصح الوقوف معه كنموذج - لاشك رائع - لمعتقدات واحد من رجالات الحنيفية (مع ملاحظة أن هذا الشعر قد يختلف الأمر في نسبته إليه أو إلي زميله في الحنيفية زيد ابن عمرو بن نفيل، وماعدا ذلك فمتفق عليه)؛ فهو يقول في إيمانه:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا رب الحنيفية لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا وفي إيمانه - مثل عبد المطلب وزيد - بيوم بعث ونشور؛ يقول:

ويوم موعدهم يحشرون زمرا ... يوم التغابن إذ لاينفع الحذر
وأبرزوا بصعيد مستو حرز ... وأنزل العرش والميزان والزُبُرُ

ويستطرد شارحا مفصلا عن هذا اليوم:

عند ذي العرش يعرضون عليه ... يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم ... إنه كان وعده مأتيا
رب كُلاً حتمته النار ... كتابا حتمته مقضيا

ويحذر من عذاب الدار الآخرة فيقول:

وسيق المجرمون وهم عراة ... لي ذات المقامع والنكال
فنادوا ويلنا ويلا طويلا ... وعجوا في سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا ... وكلهم بحر النار صالي
وحل المتقون بدار صدق ... وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون فيها وماتمنوا ... من الأفراح فيها والكمال

وعن إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) اللذين يرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم؛ يحكي قصة الذبح والفداء؛ في حوار طويل ممتع، نجتزيء منه:

ابني إني نذرتك للــــه شحيصا فــاصــبــر فــدا لك خـالـي
فـأجـــاب الـغـلام أن قـال فــيـه كل شـيء لله غـــيـــر انتــحــال
فـاقض مـا قـد نذرته لله واكـفف عن دمـي أن يمـسـسـه سـربـالي
وبينمـا يخلع الســراويل عنـه فـكـه ربـــه بـكـبـش حـــلال

وعن يونس يقول:

وأنت بفـضل منك أنجيت يـونسـا وقـد بات في أضعـاف حـوت لياليـا

وعن موسي وهارون ولقائهما بفرعون مصر يقول:

وأنت الـــذي من فـضل ورحـمـة بعـثت إلـي مـوسـي رسـولا مناديا
فـقلت له اذهب وهـارون فـادعـوا إلي الله فـرعـون الذي كـان طاغـيـا
وقـــولا لـــه: أأنت ســـويت هذه بلا وتــــد حـتي اطمأنت كمـا هيا
وقـــولا لـه: أأنـت رفــــعـت هـذه بلا عــمــد، أرفق، إذا بـــك بانيـا

وعن عيسي وأمه يقول:

وفـــي دينكم مــــن رب مـريم أية منبـئة بالعـبـد عيـسي بأن مــريم
تدلي عليـهـا بعـــدمـا نام أهلـهـا رسـولا فـلـم يحـصـر ولـم يترمرم
فـقال: ألا لاتجـزعـــــي وتكذبي مـــلائكة مـن رب عـــاد وجــرهـم
أنيـبي وأعطــي مـاسـئلت فـإنني رســول من الرحـمن يأتيك بـابنم
فــقـــالــت: أنـــي يكون ولـم أكن بغـيـا ولاحـبلـــي ولا ذات قــــيم
فـسـبح ثـم اغـتـــرهـا فـالـتـقت به غـلامـا سـوي الخلقـة ليس بتـوأم
فـقـــال لـهـا: إنـي مــن الله أية وعـلـمنـــي، والـلـه خـيـر مــعـلم
وأرسلت ولم أرسل غـويا ولم أكن شـقـيـا، ولم أبعث بفـحـش ومـأثم

ويقول جواد علي مانصـه: «وفي أكثر مانسب إلي هذا الشاعر من آراء ومـعتقدات، ووصف ليوم القيامة والجنة والنار؛ تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلا، لما ورد عنها في القـرآن الكريم، بل نجد في شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله والحديث النبوي قبل المبعث، فلايمكن - بالطبع - أن يكون أمية قد

اقتبس من القرآن؛ لأنه لم يكن منزلا يومئذ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية؛ فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا؛ لأنه لم يكن حيا؛ فلم يشهد بقية الوحي!! ولن يكون هذا الفرض مقبولا في هذه الحال.. ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معاني القرآن وينسبها لنفسه، ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له» [٥١]. وهذا ـ بالطبع ـ مع رفض فكرة أن يكون شعره منحولا أو موضوعا من قبل المسلمين المتأخرين؛ لأن في ذلك تكريما لأمية وارتفاعا بشأنه، وهو ما لا يقبل مع رجل كان يهجو نبي الإسلام (صلي الله عليه وسلم) بشعره، ولايبقي سوي أنه كان حنيفيا مجتهدا استطاع أن يجمع من قصص عصره، وما كان عليه الحنفاء من رأي في شعره؛ خاصة مع ما قاله بشأنه ابن كثير: «وقيل إنه كان مستقيما، وإنه كان أول أمره علي الإيمان، ثم زاغ عنه»[٥٢]. ولاريب أن الاستقامة تفرز الاستقامة وتلتقيها، وربما كتب ما كتب إبان هذه الفترة التي يحددها لنا ابن كثير، ولاريب أنها كانت قبل البعثة النبوية؛ لأنه بعده ـ ولاشك ـ زاغ عن إيمانه واستقامته؛ إذ رأي الملك والنبوة تخرجان من بين يديه؛ بعد أن أعد نفسه لهما طويلا.

هوامش

١ – ثريا منقوش: التوحيد يمان ص ١٥٩.

٢ – د. جواد علي: المفصل، ج ٥، ص ٥٩.

٣ – الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤، ج٢، ص ٢٢٥.

٤ – ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي، المطبعة المنيرية، ص ٧٤.

٥ – العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٤٤.

٦ – الألوسي: بلوغ الأرب. ج٢، ص٢٤٤.

٧ – الشهر ستاني: الملل والنحل، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١، ج١، ص ٩٦.

٨ – عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٢٦٤.

٩ – الجاحظ: البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨، ج١ ص ٣٠٩.

١٠ – الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢١٩ و ٢٥٩.

١١ – ابن حبيب: المحبر، ص ١٣٦.

١٢ – الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢٦٠.

١٣ – ابن هشام: السيرة ج ١، ص ٥١٠.

١٤ – ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٣ هـ، ج٣، ص ٢٦٢.

١٥ – ابن هشام: السيرة، ج١، ص٥١١ و ٥١٢.

١٦ – الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢٧٢.

١٧ – الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، الحلمية الجديدة القاهرة، ١٩٨٢، ج٤، ص ٦١٧، ٦١٨.

١٨ – الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٣٧٥.

١٩ – ابن حبيب: المحبر، ٣٢٩.

٢٠ – الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢٧٦.

٢١ – نفسه: ص ٢٧٧.

٢٢ – الموضع نفسه.

٢٣ – ابن حبيب: المحبر، ص ٢٣٨.

٢٤ – د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء، ص ١٦٤.

٢٥ – ثعلب: شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٥.

٢٦ – نفسه: ص ٢١٩.

٢٧ – نفسه: ص ٢٨٤.

٢٨ – جواد علي: المفصل، ج ٥، ص ٢٩٠.

٢٩ – الشهر ستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفي البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١، ج ١، ص ٢٣١.

٣٠ – د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٣٩: ٢٤١و٢٤٥.

٣١ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢١، ٢٢٤.

٣٢ – البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص ١٢٣ و ١٢٤.

٣٣ – الطبري: التاريخ، ج٢، ص ٢٩٦.

٣٤ – المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٧٠ وانظر أيضا بوعلي ياسين: الثالوث المحرم، الطليعة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠، ص ٧٠و٨٥.

٣٥ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٢٥.

٣٦ – د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء

٣٧ – ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٢٠٨.

٣٨ – نفسه: ص ٢٠٦.

٣٩ – نفسه: ص ٢٠٧، ٢٠٨. وانظر أيضا البيهقي، ج٢، ص ١٢٥، ١٢٦. وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام ص ١٢ إن النبي ذكر العزي يوما، فقال: لقد أهديت للعزي شاة عفراء وأنا علي دين قومي.

٤٠ – الشهر ستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٨. وانظر أيضا ابن هشام السيرة، ج١، ص ٢٠٨ و ٢٠٩.

٤١ – ابن سعد: الطبقات الكبير طبعة لندن، ٩٣٢ هـ، ج٣، ق ١، ص ٢٧٦.

٤٢ – الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت ج٣ ،ص١٢٣ .

٤٣ – ابن هشام: السيرة، ج١ ، ص ٢٢٧.

٤٤ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢ ، ص ٢٠٥.

٤٥ – نفسه: ص ٢٠٦.

٤٦ – نفسه: ص ٢٠٩.

٤٧ – جواد علي: المفصل، ج٥ ، ص ٢٨٠ و٢٨١ . وانظر ابن هشام: السيرة ج ١ ، ص ٢٠٨ و٢٠٩ . وانظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢ ، ص ٢٠٦ : ٢٠٨ .

٤٨ – نفسه: ص ٣٧٧ و ٣٧٨ و٣٨٣ .

٤٩ – لويس شيخو: شعراء النصرانية، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

٥٠ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢ ، ص ٢١٢ .

٥١ – جواد علي: المفصل، ج٥ ، ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

٥٢ – ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

ظهور النبى المنتظر

يتأكد مما سبق أن قدسية الكعبة، وتحريمها، ثم تحريم شهور محددة لانطلاق قوافل التجارة، وحج العرب إليها، قد جسد ـ رمزيا ـ مكانة مكة القيادية بالنسبة إلي القبائل العربية علي الجانب السياسي، وكان تحريمها ضمانا آخر لتقديسها، وأمانا من مطامع من يريد السيطرة عليها من القبائل الأخري، مع ما أضافته بئر زمزم وقصتها مع عبد المطلب من قدسية أخري، تضاف إلي لبنات الأيديولوجيا الدينية المتنامية التي بلغت أوجها في توحيد القبائل علي شعائر محددة تقام في مكة، حددت نوع الولاء، ونوع العبادة؛ مما حمل في رحمه بذور الوحدة السياسية المقبلة التي ارتهنت بولاء القبائل لسلطان مكة، وعندما جاء دين الإسلام العظيم، لم يلغ شعائر الحج القديمة ولا حرمة مكة، وإنما أخذ علي عاتقه محاربة العصبية القبلية وتعدد الآلهة، ثم اعتبر ذاته من جهة أخري استمراراً لدعوة إبراهيم (عليه السلام)، كما كان واضحا أن النبي (صلي الله عليه وسلم) اتخذ خطوات متسارعة لتكوين قوة عسكرية؛ قامت بدورها في توحيد جزيرة العرب جميعا.

ومعلوم أن المصطفي (صلي الله عليه وسلم) ـ بعد أن طوت راحة الزمن جده عبد المطلب ـ شب في كنف عمه أبي طالب، وببلوغه (صلي الله عليه وسلم) مرحلة الشباب؛ تزوج السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) التي وصفها ابن إسحق بأنها «كانت امرأة تاجرة؛ ذات شرف ومال»(١)، ووصفها ابن سيد الناس بأنها كانت أكثر نساء العرب مالا(٢)، وكانت تكبر النبي (صلي الله عليه وسلم) بنحو خمس عشرة سنة؛ مما وفر له (صلي الله عليه وسلم) الوقت الكافي، والاطمئنان النفسي للانصراف من السعي وراء الرزق، إلي التفكير في شؤون قومه السياسية والدينية. وفي ذلك يقول الدكتور أحمد الشريف: «ثم إن النبي وجد بعد زواجه من خديجة بنت خويلد ـ وهي إحدي النساء الغنيات الشريفات في مكة ـ نوعا من الراحة النفسية.. وقد كان في هذا الزواج من العوامل التي جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة، ومن بعض عناء السعي؛ فخديجة الغنية بمالها التي كانت امرأة نَصَف؛ قد فارقت عهد الشباب الأول، وكانت لها تجربة في إدارة أموالها، كانت أقدر علي حياة زوجية هادئة رصينة، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية»(٣).

ومعلوم أيضا أن النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) كان الزوج الثالث للسيدة خديجة، بعد عتيق بن عابد الذي أنجبت منه هندا، وأبي هالة الذي أنجبت منه هالة وهندا أيضا(٤)، وقد أوضح القرآن الكريم فضل هذه السيدة علي نبيه (صلي الله عليه وسلم) وعلي المسلمين؛ في قوله تعالي: ﴿ووجدك عائلا فأغني﴾، وكان النبي

(صلي الله عليه وسلم) يقول «.. آمنت بي حين كذبني الناس، **وواستني بمالها حين حرمني الناس»**.

وعندما تزوج المصطفي (صلي الله عليه وسلم) من السيدة خديجة (رضي الله عنها)؛ أكثر الناس من الكلام في هذه الزيجة، وهنا يروي لنا ابن كثير «.. أن عمار ابن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله (صلي الله عليه وسلم) خديجة، وما يكثرون فيه؛ يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تربا، وكنت له إلفا وخدنا، وإني خرجت مع رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ذات يوم؛ حتي إذا كنا بالحزورة؛ أجزنا علي أخت خديجة وهي جالسة علي أدم تبيعها، فنادتني؛ فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته، فقال: بلي لعمري؛ فذكرت لها قول رسول الله (صلي الله عليه وسلم)؛ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا؛ فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته (أي صبغت بالحناء)، وكلمت أخاها؛ فكلم أباه وقد سقي خمرا، فذكر له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ومكانه، وسأله أن يزوجه؛ فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا منه، ونام أبوها، ثم استيقظ صاحيا فقال: ما هذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمار بن ياسر: **هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة؛ فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح** حتي جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله (صلي الله عليه وسلم) فكلموه؛ فقال: أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته»(٥)!!

أما عمه أبو طالب فألقي في العرس خطبة؛ منها قوله «.. **فنحن سادة العرب وقادتها**، وأنتم أهل ذلك كله، لاينكر العرب فضلكم.. ورغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم.. وأمرت خديجة جواريها أن **يرقصن ويضربن الدفوف**، وفرح أبو طالب فرحا شديدا»(٦).

وبعدها أخذ محمد (صلي الله عليه وسلم) يتابع خطوات جده عبد المطلب إلي غار حراء؛ مما حول هذا الكهف إلي مكان مقدس ودخل التاريخ دون ملايين مثله، وبالحنيفية آمن، ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتي حسم الأمر، بإعلانه أنه نبي الأمة، بعد أن أوحي إليه إله إبراهيم ﴿.. أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ ـ ١٢٣ النحل.

وكما حدث مع أمية بن عبد الله حدث مع محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم)؛ فتحدثنا الأخبار أن راهبا مسيحيا يدعي (بحيرا) قد توسم فيه أمارات النبوة، واكتشف خاتمها في كتفه. ويحدثنا النبي (صلي الله عليه وسلم) عن نفسه فيقول: «أنا دعوة إبراهيم، وبشري عيسي، رأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لنا خلف بيوتنا نرعي بهُمًا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض؛ بطست من ذهب مملوء ثلجا، فشقا بطني واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتي أنقياه»(٧)!!

وتقول سيرة ابن هشام: إن محمداً (صلي الله عليه وسلم) لما بادأ قومه بالإسلام؛ لم يجدوا في دعوته غضاضة، ولربما لم يكترثوا لها، ولعل مرجع ذلك إلي حرية الاعتقاد التي كانت عرفا مسنونا، عرفا حتمته المصالح التجارية في مكة؛ فكان المسيحي فيها يعيش إلي جوار الحنفي إلي جانب اليهودي، مع الصابيء والزراد شتي، وعبدة النجوم، وعبدة الجن، وعبدة الملائكة، وعبدة الأسلاف وتماثيل الشفعاء؛ دونما قهر أو فرض أو إجبار؛ حتي إن العبد كان يظل علي دين يخالف دين سيده؛ دون أن يخشي في ذلك مساءلة أو ملامة، وبرغم أن محمدا (صلي الله عليه وسلم) من الفرع الهاشمي؛ فإن حزب (عبد الدار ـ عبد شمس ـ نوفل) لم يهتم كثيرا في البداية للدعوة الجديدة؛ خاصة أن محمداً (صلي الله عليه وسلم) لم يخرج آنذاك عن أطر عرفهم المسنون في حرية الاعتقاد؛ فلم يجبر أحدا لاعتناق دعوته، كما لم يحاول فرضها أو اعتبارها الديانة الوحيدة الواجب اعتناقها، وتشهد بذلك الآيات الكريمة:

﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ـ ٦ الكافرون.

﴿أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين﴾ ـ ٩٩ يونس.

﴿إن أنت إلا نذير﴾ ـ ٢٣ فاطر.

﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾ ـ ١٠٧ الأنعام.

﴿واصبر علي ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾ ـ ١٠ المزمل.

ومع أن المناوشات الكلامية التي دارت بين المكيين ومحمد (صلي الله عليه وسلم) لم تصل بالقوم إلي حافة شفير الحرب مرة أخري؛ فإنها نبشت الجمر الثاوي في

القلوب؛ بعدما أعلن محمد (صلي الله عليه وسلم) دعوته؛ مطالبا أهل مكة باتباعه؛ فكان حتما أن يتساءل الناس، لكن تساؤل الوليد بن المغيرة (الملقب بالوحيد لمكانته بين سادات مكة)، والأخنس بن شريق (كبير من رؤوس ثقيف) ـ كان تساؤلا مهينا لشخص النبي (صلي الله عليه وسلم)؛ فقد قالا: أمفتون محمد أم مجنون؟(٨)، فكان أن ردت لهما الآيات الكريمة الصاع صاعين ﴿بأيكم المفتون... هماز مشاء بنميم. منّاع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم﴾ ـ ٦:١٣ القلم، والزنيم هو ابن الزانية ـ ثم يخاطب الله نبيه في شأن الوحيد قائلا له: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر﴾ ـ ١١ : ٢٠ المدثر، وفعلا مات الوليد قتيلا بسهم مسموم، قتله الله. ثم قامت الآيات تشبه رؤوس القوم الذين لم يدركوا أبعاد تلك الدعوة العظمي ومراميها الكبري؛ بالحمير؛ فتقول: ﴿فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾ ـ ٤٩ : ٥١ـ المدثر.

حتي ذلك الحين؛ كانت قريش لاتزال في هدوء وترقب، لكن محمدا (صلي الله عليه وسلم) الذي صمم علي إتمام الأمر مهما تكلف من مشقة، قام يؤلب العبيد علي أسيادهم يناديهم: «اتبعوني أجعلكم أنسابا، والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسري وقيصر»، وهنا بدأ القوم يشعرون بحجم الخطر الآتي؛ فالأرستقراطية القرشية حتمت مصالحها وجود العبيد، بل أن يتكون جيشهم الذي يحمي التجارة من هؤلاء العبيد في أغلبه، وبات الأمر أمر حياتهم ومعاشهم، ثم إن دعوة النبي (صلي الله عليه وسلم) إلي جعلهم أنسابا التي تمثلت في عتقه لعبده زيد بن حارثة ثم إعطائه أفضل النسب وأشرفه، بتبنيه إياه؛ كان يعني لبقية الدهماء من الأعراب أملا عظيما؛ لما كان للنسب من خطورة وأهمية؛ تعطي صاحبها حماية عشائرية وقبلية، ثم إنه يعدهم بأموال أعظم؛ بأموال كسري وقيصر؛ إن هم تبعوه، وعندما وصلت قريش إلي ذلك الفهم؛ أصبح النبي (صلي الله عليه وسلم) في نظرهم، وحسب منطقهم المصلحي؛ **مجرد مغامر طموح يهدف لغرض سياسي يبدأ بضرب قريش في مقتل؛ في مصالحها التجارية، حتي إذا تهيأ له الأمر امتلك أمر الحجاز، وزحف علي ممالك الروم والعجم**، وما يتبع ذلك بالضرورة في منطق العشائر من رفع شأن بيت هاشم، وخفض شأن بيت عبد الدار وعبد شمس ونوفل. هكذا تصوروا الأمر العظيم!!

ثم هاهو ينزع عنهم صفة أخري ترتبط تماما بمصالحهم التجارية؛ تلك الصفة التي أكسبها لهم انكسار حملة الفيل علي حدود مكة؛ صفة أنهم (أهل الله)، وينادي أهل مكة: ﴿قل يا أيها الكافرون..... لكم دينكم ولي دين﴾ - سورة الكافرون، نعم؛ مازالت الآيات تبرز التسامح الديني (لكم دينكم ولي ديني)، لكنها نعتت أهل مكة بأنهم الكافرون؛ برغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله رب العرش خالق السماوات والأرض:

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون﴾ - ٦١ العنكبوت.

﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل فأني تسحرون﴾ - ٨٦ : ٨٩ المؤمنون.

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ - ٩ الزخرف.

وسعيا وراء تعليل؛ اكتشفت قريش أن إيمانها بالشفعاء هو الكفر؛ خاصة عندما بدأ رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يعيب أربابهم؛ فاستنتجوا أن محمدا (صلي الله عليه وسلم) قد **جعل شرط الإيمان الصحيح يمر عبر الإيمان به كرسول لإله واحد**؛ انطلاقا من قرن الشهادة له مع الشهادة لله؛ في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهو في فهمهم العنيد، إنما يطلب منهم الاعتراف بسيادته عليهم بهذه الشهادة، ويطلب توحدهم جميعا تحت راية قيادته وحده، بسلخ كل الشفاعات إلا شفاعته، ويذكر لنا الطبري أن النبي (صلي الله عليه وسلم) حينما دعا قومه لما بعثه الله. لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له حتي ذكر طواغيتهم[٩] وهو ذات ما أوضحته رواية عن لقاء وفد قريش وفيه أبو الحكم، بأبي طالب وابن أخيه (صلي الله عليه وسلم)؛ ليطلب من محمد (صلي الله عليه وسلم) الكف عن سب أربابهم ويتركونه لإلهه، فكان رد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عليهم: «أي عم، أو أدعوهم إلي ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلام تدعوهم؟، قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم!! فقال أبو جهل (التسمية الإسلامية لأبي الحكم) من بين القوم: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها»، وكانت الكلمة هي الشهادة الإسلامية؛ فنفروا منه وتفرقوا[١٠].

وهنا تحول أرق الحـزب المناويء وترقبه، إلي تحفـز واستنفار، خاصة عـندما أخذت الآيات الكريمة في فواصل قصيرة مؤثرة، تؤجج الحمية القتالية، وما يحمله ذلك من احـتمـال وقـوع المجـابهـة العسكـرية، وتقول: ﴿والـعاديات ضـبـحـا. فالموريات قـدحـا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا﴾ ـ ١ : ٤ العاديات، هذا مع التحول الذي بدأ يطرأ في سلوك النبي تجاهـهم، وتحوله عن الصبر الجميل إلي الهجوم، وما جاء في رواية عبد الله بن عمـرو بن العاص، عندما غـمز أشراف قريش من قناة الـنبي (صلي الله عليه وسلم) وهـو يطـوف بالكعـبة، فكان أن الـتفت إليـهم هـاتفـا: «أتسـمـعـون يا مـعـشـر قريش، أمـا والذي نفس مـحمـد بيده، **لقد جـئتكم بالذبح**»[١١]، **وبر النبي (صلي الله عليه وسلم) بقسمه في بدر الكبري!**

هوامش

١ـ ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج ١، ص ٢١٢.

٢ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١ ، ص ٢٦٢.

٣ـ د. أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٥٠ ، ٢٥١.

٤ـ الحلبي: السيرة، ج ١ ، ص ٢١٢ ، ٢٢٩.

٥ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢ ، ص ٢٧٤.

٦ـ الحلبي: السيرة، ج ١ ، ص ٢٢٧.

٧ـ الطبري: التاريخ، ج ٢ ، ص ٢٩٤.

٨ـ ابن هشام: السيرة، ج ١ ، ص٢٤٣.

٩ـ الطبري: التاريخ، ج ٢ ، ص ٣٢٨.

١٠ـ نفسه: ص ٢٤١.

١١ـ نفسه: ص ٣٣٢.

العصبية والسياسة

وعظم الأمر علي الحزب المناوئ فذهب رؤوس القوم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وغيرهم من الأشراف لمقابلة أبي طالب عم محمد (صلي الله عليه وسلم): ليثنيه عما اعتزم، فكان أن ردهم أبو طالب ردا حسنا، ولم يتوقف النبي عما اعتزم؛ فعادوا إلي أبي طالب مرة أخري ؛ فقالوا له:

> يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإذا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر علي هذا ؛ من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتي تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتي يهلك أحد الفريقين.. فعظم علي أبي طالب فراق قومه وعداوتهم .

ودعا أبو طالب ابن أخيه، وكاشفه بما كان من أمر بني العمومة فقال: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا: كذا وكذا.. فأبق عليّ وعلي نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق : محاولا بذلك وقف أمر قد يجر حربا لا تبقي تجارة ولا نسلا، لكن هذا الاجتماع التاريخي بين العم وابن أخيه، لم ينته كما بدأ، بدليل أن أبا طالب ختمه بقوله: اذهب ياابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا . وكانت النتيجة التي سجلتها كتب التاريخ الإسلامي أن .. حقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادأ بعضهم بعضا وقام حزب عبد الدار يستجمع حلفاءه لمواجهة ما بدأت نذره في الأفق(١) برغم نداء بعض العقلاء، مثل عتبة بن ربيعة الذي التقي النبي، وأدرك الأهداف الكبري للدعوة ؛ فقام يقول لقريش:

> يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علي العرب **فملكه ملككم**، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به (٢).

وعلي الطرف الآخر ؛ أعلن الهاشميون أنهم قد منعوا فتاهم ؛ **برغم عدم متابعة دعوته دينيا**؛ اللهم إلا أفرادا فرادي، فكانت عصبيتهم القبلية درعا قويا لدعوة حفيد عبد المطلب، التي استنفرت الحزب المناوئ الذي أصر علي زعمه أنها دعوة لو كتب لها النجاح لصار الأمر كله إلي البيت الهاشمي.

وفي روايتها عن هذه المنعة الهاشمية: تقول سيرة ابن هشام: وقد قام أبو طالب

حين رأي قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وعبد المطلب؛ فدعاهم إلي ما هو عليه من منع رسول الله(صلي الله عليه وسلم) والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه لما دعاهم إليه، إلا ما كان من أمر أبي لهب»(٣).

وأبو لهب هو عبد العزي بن عبد المطلب عم النبي، ولقب بهذا اللقب لحمرة شديدة في وجهه وحسن، وهو من تبت الآيات الكريمة يديه ؛ لأنه كان حريصا علي مسالمة بيت عبد شمس المناويء ؛ لأن امرأته – في الآيات حمالة الحطب – كانت في الصدارة من شريفات البيت الأموي، وكانت شقيقة أبي سفيان رأس هذا البيت.

ويتجلي مدي قدرة هذه المنعة الهاشمية وقوتها، وأثرها علي نفوس الأطراف المناوئة ؛ في قول نعيم بن عبد الله لعمر بن الخطاب، وقد التقاه يسعي لقتل محمد (صلي الله عليه وسلم) «والله لقد غشتك نفسك في نفسك يا عمر، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي علي الأرض وقد قتلت محمدا؟ ، وبهذا يمكن إدراك ما وصل إليه حال بني العمومة وحزبهم،وأبناء عبد مناف الهاشميين الذين ظهر فيهم نبي الأمة وموحد كلمتها، لكن كان كل الهم لدي الأحلاف أنه يمكنه بدعوته حيازة كل الألوية لبيته وعشيرته.

وفي أشعار أبي طالب اعتزاز واضح بأهله وبنيه ورهطه ؛ مع عمق غير خاف في النظرة السياسية للوضع المكي، ومثال لذلك قوله:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخرة   فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد مناف   ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت هاشم يوما فإن محمدا   هو المصطفي سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها علينا   فلم تظفر وطاشت حلومها(٤)

نعم ؛ ليحلم بنو عبد الدار ؛ ليحلم نوفل ؛ ليحلم بنو عبد شمس ؛ ليحلم الأمويون ما شاءوا فالرؤية التنبؤية لأبي طالب، تتوقع أو تخطط ؛ لتطيش هذه الحلوم ؛ لأن هاشما ستقف مع محمد (صلي الله عليه وسلم) حتي تنصره وتنتصر به ، ويوضح جانب آخر من شعر أبي طالب سر هذا الجهر في مواجهة حزب عبد الدار بقوله:

ولما رأيت القوم لاود فيهم   وقد قطعوا كل العري والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذي   وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا، وقد أظنهم يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
أحضرت عند البيت رهطي وإخوتي وأمسكت من أثوابه بالوصائل(٥)

ويفهم من أبيات أبي طالب هنا أنه لما رأي العداوة بادية في الحزب المناويء، وأنهم برغم عري القرابة حالفوا ضدهم أحلافا ؛ غيظا وكمدا وحسدا، لأن منهم نبيا - جمع رهطه وأهله وتعاهدوا عند الكعبة وهم يمسكون بأرديتها، وعلي الطرف الآخر؛ نجد عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل يقول: «ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبني عبد مناف الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتي إذا تحاذينا علي الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء !! والله لا نؤمن به ولا نصدقه» (٦)، ثم يرسل شعره قائلا:

أتونا بإفك كي يضلوا عقولنا وليس مضلا إفكهم عقل ذي عقل (٧)

ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن هشام لم يكن رجلا أحمق أو أبله ؛ بدلالة تحاكم العرب إليه في النفورة والمشاورة والمخايرة منذ حداثته ؛ حتي إنهم أدخلوه دار الندوة صبيا، وقال عنه حكيم فزارة ؛ قطبة بن سيار ؛ لما تنافر إليه ابن طفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن» (٨).

وعلي ذلك ؛ فلم يكن أمام عبد الدار وعبد شمس - منعا للحرب - إلا أن تطبق علي بني هاشم عقوبات التجار؛ بمحاصرتهم اقتصاديا ؛ فكان أن جاءها الرد من أبي طالب بتحد هاشمي سافر في قوله:

كذبتم ورب البيت نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ولما تطاعون دونه ونناضل
ونسلمه، حتي نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت الصلاصل
وأما لعمر الله أن جد ما أري لتلتبسن أسيافنا وبالأماثل
فإن يلقيا، أو يمكن الله منهما نكل لهما صاعا بصناع المكايل (٩)

وإلي رؤوس حزب عبد الدار: أبي الوليد، وعتبة وأبي سفيان، يتوجه مستميلا متحببا محذرا:

وسائل أبا الوليد: ماذا حبوتنا | بسعيك فينا معرض، كالمخاتل
وكنت امرأ ممن يعاش برأيه | ورحمته فينا ولست بجاهل
فعتبة: لا تسمع بنا قول كاشح | حسود كذوب مبغض ذي دغاول
وفر أبو سفيان عني معرضا | كما مر قبل من عظام المقاول
يفر إلى نجد ويرد مياهه | ويزعم: أني لست عنكم بغاف
ويخبرنا فعل المناصح أنه: شفيق | ويخفي عارمات الدواخل (١٠)

ولما لا يجد ودا ؛ يعلن أهداف البيت الهاشمي السياسية، بوضوح جهير ومباشر، فيقول:

جزي الله عنا عبد شمس ونوفلا | عقوبة شر عاجلا غير أجل
بميزان قسط لا يخس شعيرة له | شاهد من نفسه غير عائل
فأبلغ قصيا: أن سينشر أمرنا | وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل
وكان لنا حوض السقاية فيهم | ونحن الكدي من غالب والكواهل
شباب من المطيبين وهاشم | كبيض السيوف بين أيدي الصياقل
فما أدركوا ذحلا، ولا سفكوا دما | **وما حالفوا إلا شرار القبائل**
بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم | ضواري أسود فوق لحم الخرائل (١١)

وعن شدة تعلقه بابن أخيه وكلفه به، وأنه لولا المسبة والعار لآمن بدعوته الدينية، يقول:

لعمري لقد كلفت وجد بأحمد | وإخوته دأب في حومة المجد فاصل
فلا زال في الدنيا جمال لأهلها | وزينا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل | **إذا قاسه الحكام عند التفاضل**
لكن اتبعناه على كل حالة | من الدهر، جد غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب | لدينا، ولا يعني بقول الأباطل(١٢)
فأصبح أحمد فينا في أرومة | تقصر عن سوء المتطاول
حدبت بنفسي وحميته | ودافعت بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره | وأظهر دينا حقه غير باطل (١٣)

هوامش

١ – ابن هشام: السيرة ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٤١.

٢ – نفسه: ص ٢٦٢.

٣ – نفسه: ص ٢٤٢.

٤ – الموضع نفسه.

٥ – نفسه: ص ٢٤٥.

٦ – ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١ ص ١٤٠

٧ – ابن هشام: السيرة، ج٢، ص ٢٤٧.

٨ – جواد علي: المفصل، ج٥، ص ٢٣٥.

٩ – الشهر ستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٤٠. وانظر ابن هشام، السيرة ج ١، ص٢٤٧.

١٠ – ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٤٨ و ٢٤٩.

١١ – نفسه: ج٢٢، ص٢٤٩ و ٢٥١.

١٢ – نفسه: ج١، ص٢٥١.

١٣ – البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص ٤٤٤.

الدولة

هذا ما بلغ إليه أمر مكة؛ المحطة الكبري علي طريق ترانزيت العالم؛ تلك التي تحولت إلي حاضرة كبيرة، في وقت تصاعد فيه الشعور القومي العربي في بطاح الجزيرة علي اختلافها، وبلغ مداه في تضامن متأجج مع عرب قبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل ضد الفرس العجم، والفرح الاحتفالي الهائل الذي امتد شهورا في بقاع الجزيرة بانتصار هذا الحلف علي الفرس أو العجم، والذي ترك أثره في الفهم العربي الكلاسيكي الذي يقسم الناس إلي عرب وعجم، والفرح الثاني الذي تمثل في هرع القبائل العربية جميعا إلي الجنوب، تزفها البشري ويدفعها الإحساس الفخري لتهنيء سيف بن ذي يزن بالاستقلال عن الأحباش ؛ فقد كانت قبائل بكر وشيبان وعجل هي محطة المرور الأخيرة والكبري علي حدود فارس الغربية مع الجزيرة العربية أما اليمن فكانت منذ القديم أخطر محطة تجارية علي خطوط العالم القادمة من الصين والهند وشرقي أفريقيا، لتصب في بحر رمال الجزيرة ؛ لتحملها سفن الصحاري إلي الشمال حيث إمبراطوريات ذلك الزمان، **فالأمر كان نزعة قومية واضحة؛ ترتبط بمصالح اقتصادية أشد وضوحا** ؛ حتي إن القرآن الكريم نفسه عندما جاء بعد ذلك، أبدي تعاطفه الكريم مع أصحاب الأخدود في اليمن، وهم مسيحيون اضطهدوا من قبل ذي نواس اليهودي المعضد من عجم فارس، ثم أبدي تعاطفه مع الروم بحسبانهم امتدادا طبيعيا للخط التجاري المكي؛ فإنه من وجهة نظر دينية بحتة ؛ إنما عاضد الديانة المفترض أنها الأصح قبل ظهور الإسلام، وبحسبانها الديانة الناسخة للديانة اليهودية، وبرغم ذلك ؛ فإن القومية تبرز بوضوح جلي في موقفه من أصحاب الفيل ؛ عندما يصبح الصراع بين المسيحية (برغم كونها كانت الديانة الصادقة في المنظور الديني قبل ظهور الإسلام) وبين مكة رمز العروبة والروح القومية (برغم كونها كانت حتي عام الفيل مركزا من أخطر المراكز الوثنية في العالم) وبالطبع، مع اعتبار العامل الاقتصادي الذي دفع الحبشة لمحاولة احتلال مكة التي لم تعد في ذلك الوقت مجرد محطة تأخذ العشور والضرائب، وإنما تحول أهلها إلي امتلاك هذه التجارة، فكانوا يشترون تجارة اليمن والشام بأموالهم ويحققون الفائض الذي يحددونه هم أصلا.

وقد أتاح لمكة هذا الدور المتعاظم عامل آخر ؛ هو الضعف الذي طرأ علي المدينة المنافسة (يثرب) ؛ برغم أنها كانت مهيأة قبل مكة لأخذ هذا الدور، لوجود اليهود كمركز سياسي واقتصادي عريق فيها، لكن هذا الوجود ذاته كان عامل التدهور والضعف، نتيجة عنصر صراع داخلي ؛ تمثل في انقسام طائفي بين الأوس

والخزرج من ناحية، واليهود من ناحية أخري، وقد رأي اليهود من جهتهم أن وجود هذا العنصر العربي يمكن أن يكتسب تعاطف عرب الجزيرة معه، فكان أن حدثت الوقيعة بين القبيلتين، وأسهمت قريش بدورها في إشعال الحرب، لضرب يثرب كمركز منافس ؛ فوقفت إلي جوار الأوس يومي معبس ومضرس، **لكن توجهات البيت الهاشمي في مكة رأت من مصلحتها محالفة الخزرج، وتوثيق هذا التحالف بعقد الزيجات** المباركة. لكن يثرب أخذت في الانهيار السريع أمام القوة المكية الطالعة ؛ مما دفع بعقلائها إلي محاولة الإسراع في رأب الصدع ؛ بتوحيد المدينة في كتلة سياسية متوحدة تحت حكم ملك واحد يرضي عنه الجميع، وفي هذا الوقت ؛ كان كل الرجال المفترض فيهم قدرات الرياسة، والأكثر قبولا للترشيح للرياسة، وكانوا موضع التبجيل والاحترام وأصحاب كلمه نافذة، قد مات أكثرهم في وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ولم يبق سوي الرؤساء الثانويين، ومع ذلك بدأ القوم إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالاصطلاح علي رجل منهم، هو (عبد الله بن أبي بن سلول)ولكن الخزرج سرعان ما تراجعت إزاء التطورات الجديدة في مكة وأرسلوا وفودهم إلي ابن أختهم محمد (صلي الله عليه وسلم) في مكة، وقاموا بمحاولة إقناع الأوس بالأمر لما له من وجاهة من عدة نواحٍ: الأولي أنه نبي مؤيد من الله وفي ذلك كفالة النصرة، والثانية أنه طرف محايد، فلا هو أوسي ولا هو خزرجي، أما الناحية الثالثة والأهم سياسيا واقتصاديا فهي، أنه بخروجه من مكة إليهم يمكنهم بقيادته شن الحرب علي أهل مكة بل قطع خطوطها التجارية مع الشام التي تمر علي المدينة وفي ذلك لا لوم ولا تثريب ؛ فهم إنما يتبعون أمر السماء ؛ ثم إن قائدهم إنما فرد مكي ومن أهل مكة أنفسهم، ثم إن اليهود كانوا في تمام الرضا عن هذا التوجه، حيث الآيات الكريمة تكرم أنبياء بني إسرائيل وتفضل النسل الإسرائيلي علي العالمين، ثم إن هذا النبي الآتي يصلي إلي الشام قبلة اليهود، وأتباعه في المدينة يصلون إلي الشام، بل ويصومون الغفران، كما أنه يؤكد حرية الاعتقاد تماما، وتؤكد الآيات السماوية التي يحملها ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ – ٦٢ البقرة، وأن الله يقول لنبيه في آياته الكريمة ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ – ٤٣ المائدة و ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدي ونور﴾ – ٤٤ المائدة وأن النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) هو ﴿الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة..﴾ – ١٥٧ الأعراف، وأنه يخاطبهم بالموحي إليه ﴿... إني رسول الله إليكم

مصدقا لما بين يدي من التوراة..﴾ – ٦ الصف. ويلقي الدكتور أحمد الشريف الضوء علي الأحداث الآتية بعد سنوات ؛ فيقول: ولقد عالج النبي (صلي الله عليه وسلم) موقف اليهود في براعة وقدرة.. تغلب عليه حساسية الموقف التي كانت قائمة، بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر في نفوس هذه البطون، فكان لا بد أن يعمل النبي حسابا لهذا الشعور فنري النبي (صلي الله عليه وسلم) **يصانع اليهود مرة**، ويجادلهم مرة أخري، ويصبر عليهم حتي تحين الفرصة، فيقلم أظفارهم، ثم يري نفسه آخر الأمر مضطرا إلي **التخلص منهم نهائيا**(١)، أما الأهم لأهل يثرب جميعا فهو أن الرسول (صلي الله عليه وسلم) اتخذ من يثرب مركزا وعاصمة، وقوي قدرتها علي المنافسة مع مكة ؛ فساوي بينها وبين مكة من ناحية القدسية، فأعلنها مدينة محرمة حرمة مكة، أو كما قال: إن لكل نبي حرما، وإني حرمت المدينة، كما حرم إبراهيم (صلي الله عليه وسلم) مكة .

المهم إن الأحداث تتابعت في مكة واستمرت المنعة الهاشمية للنبي (صلي الله عليه وسلم) الذي اتبع خطي جده – كما اتبع خطواته إلي حراء من قبل – وأعلن أنه نبي الفطرة الحنفية التي نادي بها الأولون السابقون، ونادي بها عبد المطلب، ومثلما أتي جده الرئي وغته ثلاثا ليحفر زمزم فقد أتاه جبريل وغته ثلاثا، وكما اهتم عبد المطلب بتأكيد التحالف مع الأخوال من أهل الحرب في يثرب، اهتم حفيده أيضا بالأمر ؛ فكان يلقي أهل الحرب اليثارية عند العقبة، إلي أن هيأوا مدينتهم لاستقباله ؛ بعد أن مات عمه أبو طالب، واشتد ضغط الأحلاف علي الهاشميين، وكان الحل أن يغادر الي الأخوال ليرفع الضغط عن الأعمام، في الوقت الذي كان فيه لجده عبد المطلب مكانة خاصة، وأثر لا يمحي من نفسه ؛ تبرره حميته القتالية عند المعارك التي كانت تدعوه لأن يهتف: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، كأني به ينادي طيف جده: أي جدي، هأنذا أحقق حلمك !!

وقد ظل دور بني هاشم قائما إلي ما بعد خروج النبي (صلي الله عليه وسلم) من مكة إلي يثرب، بل إنهم لم يتركوه يغادر إلا بعد أن استوثقوا لمنعه أخواله اليثاربة واطمأنوا إليها، ويظهر ذلك من ذهاب عمه العباس معه – وهو بعد علي دين قومه – للقاء أهل الحرب؛ في بيعة العقبة الكبري، ولم يذهب – فيما يقول الطبري – إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له وكان هو أول المتكلمين في هذا الاجتماع هائل الخطورة الذي شكل علي وجه الزمان منعطفا حادا، غير وجه التاريخ تماما؛

فقال:

يا معشر الخزرج: إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا؛ ممن هو علي مثل رأينا فيه، فهو في عزة في قومه، ومنعة في بلده وقد أبي إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه ؛ فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عزة في قومه ومنعة في بلده» (٢)

ويخبرنا البيهقي أن هذا الوفد العظيم الذي يتكون من سبعين رجلا؛ ممثلين لأهل المدينة؛ **لم يكن بينهم سوي ثلاثة نقباء من الأوس** وهم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمه، وأبو الهيثم بن التيهان، وأنه عندما انتهي النبي (صلي الله عليه وسلم) من كلامه ووصل إلي القول: أبايعكم علي أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم ؛ تناول البراء ابن معرور – كبير القوم – يده وقال: نعم والذي بعثك بالحق نمنعك مما نمنع منه أزرنا ؛ فبايعنا يا رسول الله، **فنحن والله أهل الحرب والحلقة، ورثناها كابرا عن كابر** . وهنا اعترض أبو الهيثم ابن التيهان الأوسي الأمر ؛ قائلا: يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالا، وإنا قاطعوها ؛ فهل عسيت إن أظهرك الله، أن ترجع إلي قومك وتدعنا ؛ فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) **بل الدم الدم، والهدم الهدم**، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم.. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا(٣)، ثم أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالوفاء، وعظم العباس الذي بينهم وبين رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وذكر أن أم عبدالمطلب، سلمي بنت عمر بن زيد بن عدي بن النجار (٤).

وقبل أن ينصرفوا، أراد أهل الحرب والحلقة استعراض قدراتهم القتالية وفنونهم الحربية للنبي صلي الله عليه وسلم) ؛ فقال له ابن عبادة: إن شئت لنميلن غداً علي أهل مني بأسيافنا ، فأجل النبي (صلي الله عليه وسلم) الإمالة بالسيف إلي ما بعد الخروج من مكة بقوله: لم نؤمر بعد (٥) !!

وكانت أهم المهام بعد الهجرة إلي يثرب هي تحريم المدينة، وعقد المعاهدة مع اليهود،

ثم الخروج إلي طريق التجارة لقطعه تماما علي أهل مكة، حتي إن عبد الله بن جحش استحل فيه الشهر الحرام ؛ إعلانا لمكة بانهيار مقبل في هيكلها الاقتصادي، واستولي علي تجارة لها، وأخذ أسيرين، وقتل عمرو بن الحضرمي؛ فقالت قريش: لقد استحل محمد (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وأكثر الناس في ذلك، فأنزل الله تعالي علي رسوله (صلي الله عليه وسلم): ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير... ﴾ – ٢١٧ البقرة.(٦)

أما المهمة الجليلة والعظمي فكانت قيام النبي (صلي الله عليه وسلم) بإنشاء نواة أول دولة عربية إسلامية في الجزيرة، محققا نبوءة جده: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وبهجرته خفت أثقال الاضطهاد عن كاهل الهاشميين مما سمح لهم بالتظاهر بالحياد، ومجاملة بني عمومتهم أحيانا، كخروج بعضهم مع قريش إلي بدر، في الوقت الذي كان فيه العباس يسرب لابن أخيه أخبار مكة أولا بأول، لذلك ؛ كان الوفاء النبوي يجلجل في نداء النبي (صلي الله عليه وسلم) لرجاله، في غزوة بدر الكبري، قبل هنيهة من الهجوم علي أهل مكة: إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، **فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله،** ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه خرج مستكرها – وإنما نهي الرسول (صلي الله عليه وسلم) عن قتل أبي البختري بن هشام ؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت علي بني هاشم وبني المطلب – فقال أبو حذيفة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف، فبلغت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) مقالته فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص: أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق أبي حذيفة، والله لقد نافق !! فكان أبو حذيفة يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ (٧).

ويقول الأستاذ أحمد أمين إن النبي (صلي الله عليه وسلم)؛ بعد النصر في بدر ارتحل حتي إذا كان بالروحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلي من معه من المسلمين ؛ فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به ؟! فو الله ما لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة، فنحرناها !! فتبسم رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ثم قال: يا ابن أخي أولئك الملأ (٨).

نعم، هكذا انتهي أمر الملأ، أرستقراطية قريش ورجال الندوة وحملة اللواء !! وتهيأت الدولة لنشر جناحيها علي أرض العرب، وعلي مكة ذاتها، الأمر الذي دفع العقاد للقول:

نكاد نقول: إن العرب أقبلت علي الإسلام أفواجا، حين صارت الكعبة إلي يديه وأصبحت عاصمة العروبة، عاصمة الدين الجديد ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز(٩).

وهكذا ؛ قامت الدولة الإسلامية، بجهود البيت الهاشمي، وفضل لا ينكر لأهل الحرب والحلقة اليثارية وخئولتهم، لكن ذلك كله لم يفت في عضد الحزب الأموي، فظل هؤلاء يترقبون الفرص حتي ما بعد اتساع الدولة بالفتوحات، وعندما سنحت الفرصة اقتنصوها، واستولوا علي الحكم إستيلاء صريحاً بعد أن كان ضمنياً بإستبعاد علي بعد وفاة الرسول ، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بني عمومتهم في المجازر الدموية التي راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمي ؛ حتي امتدت يد الانتقام الحمقاء إلي حفدة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) استئصالا لهذا البيت وأهله ووصل بهم حد الهوس إلي ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق ؛ مشاعر عبر عنها لسان يزيد بن معاوية الأموي (منسوبا إليه عن قصيدة طويلة لابن الزبعري):

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل (١٠)

أو كما أورده ابن كثير:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء ولا وحي نزل (١١)

هوامش

١ – أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٤١٥.

٢ – الطبري: التاريخ، ج٢، ص ٣٦٥.

٣ – البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص ٤٤٧ و ٤٤٨.

٤ – نفسه: ٤٥٤.

٥ – الطبري: ج٢، ص ٣٦٥.

٦ – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨.

٧ – نفسه: ص ٢٢.

٨ – نفسه: ص ٢٥.

٩ – العقاد: طوالع البعثة المحمدية، ص ٦٥.

١٠ – محمد القزويني: فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كربلاء، ط٩، د.ت، ص ٥.

١١ – ابن كثير: البداية والنهاية ج٨، ص٢٢٧.

مصادر استشهادات البحث

- القرآن الكريم.

١ – الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، د. ت.

٢ – الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤.

٣ – ابن حبيب: المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت د. ت.

٤ – ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي المطبعة المنيرية.

٥ – ابن سعد: الطبقات الكبير، طبعة لندن، ١٩٣٢.

٦ – ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.

٧ – ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.

٨ – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦.

٩ – ابن هشام: السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرءوف ومحمد محيي، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٩٧٤.

١٠ – أمين، (أحمد) : فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٤، ١٩٨٧.

١١ – البغدادي: خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي ١٩٦٧.

١٢ – البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبدالمعطي قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨.

١٣ – ثعلب: شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

١٤ – الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨.

١٥ – الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة

بيروت، د. ت.

١٦ – الحوت(محمود سليم) في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ط٢، ١٩٨٩.

١٧ – خليل (خليل أحمد) مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

١٨ – الزبيدي: تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

١٩ – السقاف (أبكار) نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة د. ت.

٢٠ – السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرءوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.

٢١ – الشريف (أحمد إبراهيم) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢.

٢٢ – شلبي (أحمد) السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢ ـ ١٩٨٧.

٢٣ – الشهرستاني: الملل والنحل: طبعة البابي الحلبي، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٦١، والمطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١.

٢٤ – شيخو (الأب لويس) شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب – الحلمية الجديدة – القاهرة، ١٩٨٢.

٢٥ – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، د. ت.

٢٦ – العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

٢٧ – العقاد (عباس محمود) إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.

٢٨ – العقاد(عباس محمود) طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٧.

٢٩ – علي (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد د. ت.

٣٠ – العمري (أحمد جمال)الشعراء الحنفاء، دار المعارف القاهرة، ط١، ١٩٨١.

٣١ – القزويني (أحمد) فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كربلاء، ط ٩.

٣٢ – الكلبي: الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤.

٣٣ – منقوش (ثريا) التوحيد يمان: التوحيد في تطوره التاريخي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧.

٣٤ – الهمداني: الإكليل، بغداد، ١٩٣١.

أعمال المؤلف

١ ـ الموجز الفلسفي: دار السياسة الكويتية، الكويت (نفذ).

٢ ـ مشكلات فلسفية: (بالمشاركة مع آخرين)، التربية الكويتية، الكويت.

٣ ـ أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة.

٤ ـ الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية.

٥ ـ النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.

٦ ـ الأسطورة والتراث.

٧ ـ حروب دولة الرسول «جزء أول».

٨ ـ إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل.

٩ ـ قصة الخلق: منابع سفر التكوين

١٠- رب الزمان

١١- حروب دولة الرسول «جزء ثان»

قيد البحث

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة

المحتويات

إهداء	٥
مقدمة	٧
نماذج من الكتابات التي تناولت هذا العمل	١١
هذه الدراسة	١٣
قضية للمناقشة	١٥
التعدد لا التعدي	٣١
فضائح الفكر اليساري	٣٩
تأسيس(١)	٥١
تأسيس(٢)	٥٧
الكعبات	٦٣
مكة: حلم السيادة	٧١
قصي بن كلاب؟!	٧٩
الصراع علي السلطة بعد قصي	٨٧
بنو هاشم من التكتيك الي الأيديو لوجيا	٩٥
جذور الايديولوجيا الحنفية	١٠٩
ظهور النبي المنتظر	١٢٩
العصبية والسياسة	١٣٩
الدولة	١٤٧
مصادر استشهادات البحث	١٥٧
أعمال المؤلف	١٦٠
المحتويات	١٦١

الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية

قليلة هى القراءات الموضوعية التى حاولت الاقتراب من التاريخ العربى فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، ونادرة هى المحاولات التى قاربت تاريخية القراءة لتلك الحقبة فى ذلك المكان .

وكثيرة بل غفيرة تلك الكتابات التى ازدحمت بها المكتبة العربية ، والتى كتبت من على مقعد سلطة الغيب أو سلطة الحاكم أو سلطة المذهب أو سلطة الأيديولوجيا أو سلطة النصوص ، وما أكثر المنتفعين .

وهذا الكتاب يفتح معك نافذة على رؤية أخرى بقراءة أخرى لذات المرحلة لكن بالمنهج العلمى وحده رافضا أى سلطة على البحث ، واضعا عينا على الماضى وعينا على الحاضر من أجل تواصل الحاضر مع الماضى وفق منظور تاريخى علمى هادىء ورصين .

ورغم كل ما حدث من إثارة عند صدور الطبعات الأولى لهذا الكتاب ، فإنه أبداً لم يهدف إلى الإثارة ، بقدر ما هدف إلى ترسيخ المبدأ العلمى فى التعامل مع المأثور .

مدبولى الصغير

